موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(١٩)

الحرية

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

ونستطيع القول مع ابن باديس: «إن حق الإنسان في الحرية كحقه في الحياة فمقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية»[٣]؛ لأنها قاعدة ترقي النوع الإنساني ومعراجه إلى السعادة، ولذلك عدتها الأمم، التي أدركت سر النجاح، من أنفس حقوق الإنسان.. إنها حقّ طبيعّي للإنسان[٤]. كيف لا وصرخة سيدنا عمر بن الخطاب لا تزال الأجيال تردد صداها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

والإنسان العربي بطبعه مجبول على الحرية، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على ألا يؤثر ذلك في حريته الشخصية، ويأبى الذل والهوان ويرفض الخنوع والاستسلام ولا يرضى أن يعيش مستعبدًا ذليلاً ويكافح ويقاتل في سبيل كرامته وحريته. فإذا أعوزه القتال هاجر من أرض إلى أرض، وانتقل من بلد إلى بلد واستعاض نجعًا عن نجع، تقوده فطرته الحرة إلى ظلال الحرية. وتدفعه النخوة إلى حماية الضعيف من القوي ومساعدة المظلوم على الظالم. وهو يشتد إذا واجهته الشدائد، ويعظم إذا تحدته العظائم، ويؤثر شظف العيش مكرمًا عزيزًا على أن يكون ناعم الحال مهينًا ذليلاً، ويردد قول البطل العربي عنترة العبسي[٥]:

لاَ تَسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذُلَّةٍ ... بَلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ

فالحرية عند العربيّ دعامة كرامته وتاج سيادته، بل هي جماع أخلاقه وطباعه التي فطره الله عليها. وهي الغذاء الضروري لكيانه وحياته، فكما أن الغذاء المادي تحيا به حياته المادية، فكذلك الحرية هي غذاؤه الروحي لحياته الحرة ولكرامته وعزته الإنسانية.

---

[٣] الميلي، محمد: ابن باديس، عروبة الجزائر، دار الثقافة، لبنان (١٩٧٣)، ص٤٦.

[٤] أمين، قاسم: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (١٩٧٢)، ص١٣٨.

[٥] ديوان عنترة العبسي، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت ط٢ (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٣٢٥.

www.mtenback.com

ومن أجل هذه الحرية خاض المعارك، واستبسل في القتال، وركب الأهوال ذوداً عن حماه، وأبى أن يكون عبداً لإنسان. وقد أعجب المؤرخ اليوناني هيرودوتس وغيره بحب العرب للحرية ومقاومتهم للاسترقاق، وذكروا أنهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم الفرس، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم وإنما اضطروا إلى معاملتهم معاملة أصدقاء وحلفاء[٦].

ولعل الحياة الصحراوية هي التي طبعت أصحابها بطابع الإفراط في حبّ الحرية. لذلك نجد العربي القديم يشعر، وهو في الحضر بين سكان القرى والمدن، أنه في سجن لا يطاق لكثرة القيود التي تقتضيها عادات المتحضرين، ويسعى للعودة إلى وطنه حيث ينطلق حرًّا كما يشاء.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

[٦] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج٤، ص٤٠٨.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الحرية لغة:

جاء في لسان العرب: الحُرّ: نقيض العبد،والجمع أحرار، والحرة نقيض الأمة والجمع حرائر، ومنه حديث عمر، قال للنساء اللاتي كن يخرجن إلى المسجد: لأُرُدَّنَّكن حرائر. أي لألزمنكن البيوت فلا تخرجن إلى المسجد لأن الحجاب إنما ضرب على الحرائر دون الإماء.

وحرَّرَه: أعتقه. وفي الحديث: من فعل كذا وكذا فله عِدل مُحرَّر أي أجر مُعْتَق.

والحرّ من الناس: أخيارهم وأفاضلهم. وحُرية العرب: أشرافهم، قال ذو الرمة:

فَصَارَ حَيًّا، وَطَبَّقَ بَعْدَ خَوْفٍ عَلَى حُرِّيَّةِ العَرَبِ الهُزَالَى

أي على أشرافهم. وفرس حرّ: عتيق. وحُر الفاكهة: خيارها. والحرّ: كل شيء فاخر من شِعْر وغيره. وحرّ كل أرض: وسطها وأطيبها. والحَرّ والحُرّة: الطين الطيب قال طرفة[٧]:

وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ، دِعْصٌ لَهُ نَدُّ

والحرّ: الفعل الحسن. يقال ما هذا منك بحرّ أي بحسن ولا جميل. قال طرفة[٨]:

لاَ يَكُنْ حُبُّكِ دَاءً قَاتِلاً لَيْسَ هَذا مِنْكِ مَاوِيٌّ بِحُرّ

أي بفعل حسن.

والحرة الكريمة من النساء. قال الأعشى[٩]:

---

[٧] ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص١٨٢، مادة (حرر)، وانظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٣، ص١٣٣، والدِّعص: قطعة من الرمل مستديرة.

[٨] طرفة بن العبد البكري: ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص٦٧.

[٩] الأعشى، ميمون بن قيس بن جندل: ديوان الأعشى، تحقيق: لجنة الدراسات في دار الكتاب اللبناني، إشراف: كامل سليمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ص١٦٨.

www.mtenback.com

حُـرَّةٌ طَفلَـةُ الْأنـامِلِ تَرتَبْـــــــ ـــــبُ سُـخَامًا تَكُفُّـهُ بِخِـــلَالِ

فهي حرّة ناعمة الأنامل تعنى بشعرها الطويل الأسود وتكفه بالمشط.

قال الأزهري: وأما قول امرىء القيس[10]:

لَعَمْرُكَ مَا قَلْبِي إِلَـــى أَهَلِـهِ بِحُـرّ وَلاَ مُقْصِـرٍ يَوْمًـا، فَيَـأْتِينِي بِقُـــر

أي صاحبه بِحُر: بكريم لأنه لا يصبر ولا يكف عن هواه، والمعنى أن قلبه ينبو عن أهله ويصبو إلى غيرهم.

ويقال ناقة حرة وسحابة حرة أي كثيرة المطر. قال عنترة:

جَادَتْ عَلَيْهَـــا كُـلُّ بِكْـرٍ حُـرَّةٍ فَـتَرَكْنَ كُـلَّ قَـرَارَةٍ كَـــالدِّرْهَمِ

وفي الحديث: «ما رأيت أشبه برسول الله ﷺ من الحَسن، إلا أن النـــبي ﷺ، كان أحر حُسنًا منه»، يعني أرق منه.

نلاحظ أن ابن منظور يفرق بين معنيين للحرية:

معنى قانوني: الحر نقيض العبد، فالإنسان الحرّ من الوجهة القانونية مختلف عن العبد الذي كان مِلْكًا له.

ومعنى أخلاقي: وهي رغبة الإنسان في أن يكون طيبًا وتعني ضبـــط النفـــس والتخلي عن الصفات الذميمة من الحرص والشره.

قال أبو تمام[11]:

رَأَيْـتُ الْحُـرَّ يَجْتَنِـبُ الْمَخَـازِي وَيَحْمِيْـهِ عَـنِ الْغَـدْرِ الْوَفَـــاءُ

---

[10] امرؤ القيس بن حجر الكندي: ديوان امرئ القيس، دار الجيل، بيروت، ط١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٣٠٠.

[11] أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبنـــاني، بيروت، لبنان، ط١، (١٩٨١م)، ص٧٨٤، المخازي، المعايب.

www.mtenback.com

وقول الشريف الرضي[١٢]:

كُلُّ الرِّجَالِ إِذَا لَمْ يَخْشَعُوا طَمَعًا ... وَلَمْ تُكَدِّرْهُمُ الآمَالُ أَحْرَارُ

ويقول المتنبي[١٣]:

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالعَفْوِ عنْهُمُ ... وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدا

ويقول بشار بن برد[١٤]:

اَلحُرُّ يُعْطِيكَ عَفْوًا مِنْ فَواضِلِهِ ... قَبْلَ السُّؤَالِ وَسَيْبُ الْعَبْدِ مَنْكُودُ

ومن أمثالهم: أنجز حُرٌّ ما وعد[١٥].

ويفرق المعنى المعجمي بين حرية الأصل وحرية العتق، إذ حَرَّ الرجلُ حرية، أما التحرير فهو جعل الإنسان حرًا، كقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[١٦]. وقوله تعالى: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[١٧]. أي جعل ولده بحيث لا ينتفع به الانتفاع الدنيوي، بل جعله مخلصًا للعبادة[١٨].

كما نلاحظ أن معاني الحرية تدور حول الفرد وعلاقته مع غيره، فردًا كان أو قوة طبيعية تستعبده من الداخل. وهكذا يحيل المعجم إلى مجالين من النشاط الإنساني: القانون الذي يحدد كيفية تعامل الإنسان مع الإنسان، والأخلاق التي تصف علاقة العقل بالنفس في ذات الإنسان.

---

[١٢] قبش: مجمع الحكم والأمثال، دار الآفاق، دمشق، ط١، (١٩٨٣م) ص٩٦.

[١٣] ديوان المتنبي، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

[١٤] ديوان بشار بن برد. شرح: محمد الطاهرعاشور، القاهرة، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، ص١٥٦

[١٥] ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر بن محمد: العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١، ص٢٤٤.

[١٦] سورة النساء: ٩٢.

[١٧] سورة آل عمران: ٣٥.

[١٨] رزونتال فرانز، مفهوم الحرية في الإسلام، معهد الاتحاد العربي، طرابلس، (١٩٧٨م)، ص٣٥.

www.mtenback.com

الحرية اصطلاحًا:

يعرف المفكرون والباحثون الاجتماعيون الحرية بأنها الملكة الخاصة التي تميز الإنسان من حيث هو مخلوق عاقل يصدر في أفعاله عن إرادته هو لا عن أية إرادة أخرى غريبة عنه. فالحرية في معناها الاشتقاقي هي انعدام القسر الخارجي. والإنسان الحر بهذا المعنى هو من لم يكن عبدًا أو أسيرًا. ومن هنا اصطلح على تعريف الحرية بأنها «اختيار الفعل أو استطاعة اختيار ضده»[١٩].

وبالرجوع إلى نظريات المفكرين في الحرية نجد لهذه الكلمة مفهومات مختلفة:

وهي تقوم على الإرادة المطلقة أو استواء الطرفين وهذا النوع من الحرية هو ما يتبادر إلى الذهن حين نتصور أنفسنا أحرارًا، ننسب إلى أنفسنا صفة الحرية، لأننا نعلم أن في وسعنا أن نعمل بمقتضى إرادتنا، عندما نريد هذا الشيء أو ذاك.

أو الحرية والاستقلال الذاتي. هذا النوع من الحرية هو الذي يصمم فيه الإنسان ويعمل بعد تدبر وروية فتجيء الأفعال وليدة معرفة وتأمل، فالذي يعمل الشيء عند أول دافع يخطر له على بال لم يستعمل الحرية في موضعها الصحيح، لأن الحرية يجب أن تكون عملاً وفق معايير أخلاقية يقرها العقل وتقبلها الإرادة السليمة.

فأخلاقيات الإنسان هي التي تحدد كونه حرًّا أو عبدًا ولا توسط بينهما. والإنسان الحر يتقبل ضروب الملمات الصعبة، ويرى ذلك شرفًا له. وقد يستعبد الحر، كما يمكن لعبد قِنٍّ أن يتميز على أولئك الأحرار بخصائص النبل. وقد فخر الشاعر الأسود سحيم عبد بني الحسحاس بأنه وإن كان عبدًا فإن نفسه حرة كرمًا، وإن يكن أسود اللون فإن أخلاقه بيضاء[٢٠]:

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا ... أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ الْخُلُقِ

---

[١٩] إبراهيم زكريا: مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة، ط٢، (١٩٦٣م)، ص ١٦

[٢٠] سحيم عبد بني الحسحاس: ديوانه، تحقيق: عبد العزيز الميمني، القاهرة، (١٩٦٥)، ص٥٥.

www.mtenback.com

ويرى بعض المفكرين أن الإنسان الحرّ هو الذي لا تملكه شهوة أو رذيلة، فهو بهذا يحكم الأشياء كلها ولا تحكمه، إذ بزهده فيها صار حرًا برغبته وإرادته وترفُّعِهِ عن مطامع النفس التي هي سبب الرق الحقيقي والذلة لمطالب أو شهوات قد لا تتحقق له ولا يحصل منها على طائل. وقد قال بعض أهل العلم، إن الحرية بمعناها الصحيح ألا يكون الإنسان تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان الرغبات، وقد مثل حارثة هذه الحرية بقوله: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها. والحرية في اصطلاح بعض الزهاد هي الخروج من رق الكائنات وقطع جميع العلائق إلا من الله، وهي على مراتب حرية عامة عن المطامع، وحرية خاصة عن الانصياع إلى المواضعات التي لايقبلها المرء وإنما يعمل بها بحكم تقليد قبلي أو قسر اجتماعي.

ويقدم فخر الدين الرازي تعريفًا عقليًا ونفسيًا للحرية فهي[٢١] عنده تعني أن النفس إما أن تكون تائقة بغريزتها إلى الأمور البدنية، وإما أن تكون غير تائقة إليها، فالتي تكون تائقة هي الحرة يقول: وإنما سمينا هذه الحالة بالحرية، لأن الحرية تقال على ما يقابل العبودية، ومعلوم أن الشهوات شيء مستعبد. والتائق إلى الأمور البدنية فإنه سواء تركها أم لم يتركها فإنه لا يكون حرًا بل التائق التارك أسوأ حالاً من التائق الواجد في الحال، من حيث إن التوقان مع الحرمان قد يشغل النفس عن اكتساب الفضائل، وإن كان أحسن حالاً منه في المال، لأن عدم وجدانه لها في الحال، واشتغاله بغيرها ربما يزيل منها ذلك التوقان في ثاني الحال. ويخلص الرازي إلى أن الحرية عفة غريزية للنفس لا تكون بالتعويد والتعليم. ويستشهد بقول أرسطو: الحرية ملكة نفسانية حارسة للنفس حراسة جوهرية لا صناعية. ويرى أن كل ما كانت النفس علامتها البدنية أضعف، وعلاقتها العقلية أقوى كانت أكثر حرية، وهو هنا

---

[٢١] انظر: الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، المباحث المشرقية، حيدر آباد، الهند، (١٣٤٣هـ)، ج٢، ص٤١٣ وما بعدها.

www.mtenback.com

يشير إلى قول أفلاطون: الأنفس المرذولة في أفق الطبيعة وظلها والأنفس الفاضلة في أفق العقل وضوئه.

الحرية قيمة اجتماعية:

الإنسان مخلوق اجتماعي ولابد له من العيش مضطرًا مع أقرانه، إذ لا يستطيع العيش أبدًا منزويًا في جزيرة بعيدة عن كل اتصال واحتكاك بالآخرين. لذلك كانت حريته متأثرة بحياة مجتمعه وبالنظام الاقتصادي القائم فيه وبطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في الوسط الذي يعيش فيه.

وإذا كان لفظ الحرية يعني في بعض معانيه انعدام القيود فإن الحرية المطلقة، تعني أن يكون الإنسان حرًا من جميع القيود، وأن يتحرر من الأشياء الخارجية ومن الطبيعة ومن الناس حوله، ومن القانون ومن العقل ومن الوراثة. ولكنك لو تحررت من كل شيء لكان معنى ذلك أنك لاشيء[٢٢].

وحرية العربي في جاهليته كانت مرتبطة بمجتمع القبيلة التي هي عماد الحياة في البادية، بها يحتمي في الدفاع عن نفسه وعن حاله حيث لا أجهزة شرطة في البوادي تؤدب. ولا سجون يُحبس فيها الخارجون على القانون وعلى نظام المجتمع، وكل ما هناك عصبية تأخذ بالحق، وأعراف يجب أن تطاع.

وتشمل العصبية كل منتمٍ إلى القبيلة، تشمل أحرارها أي أبناءها الخلص، وتشمل الموالي أي الرقيق وكل مملوك تابع لحر، فعلى كل من ينتمي إلى قبيلة ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته ويذود عنها وإن كان عبدًا مملوكًا، وذلك قانون وأمر محتوم لا جدال فيه ولا نقاش، وهو أمر ينقض الحرية؛ حيث تكون حرية الفرد تبعًا لمصلحة الجماعة، حين تلزم العصبية أبناء القبيلة بوجوب تحمل التبعة والقيام بواجبها وتلبية

[٢٢] محمود، زكي نجيب: الجبر الذاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٧٣م)، ص٢٥٢.

www.mtenback.com

ندائها وإجابة الصارخ بالعصبية وليس لأحد أن يعتذر عن عدم تلبية النداء إذن الحرية هنا محدودة.

ومن مظاهر العصبية الحميّة، وهي الأنفة والغيرة والغضب، وذلك أن الشخص كان يأنف عن عمل قبيح وتأخذه حميته أن يفعل شيئًا يعاب عليه ويعار[٢٣]، وهو يتعصب وتأخذه حميته من أن يترك سنة آبائه أجداده. وقد نهى الإسلام عن الحمية الجاهلية. ونزل الوحي منكرًا لها، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[٢٤]. وقد حدد القرآن الحمية المذمومة وبقي عليها، أما الحمية الخيرة التي تدفع شرًا وتجلب حيزًا فليست مما منع في الإسلام.

ومن مظاهر العصبية الاستغاثة، وهي أن يصيح الإنسان واغَوْثاه طلبًا للعون والنصرة[٢٥]. وعلى من يسمع نداء الاستغاثة من أهل المستغيث أو من رجال قبيلته أو الحلف الذي تكون قبيلته فيه، مد يد العون له ونصرته، ويعاب من يسمع الاستغاثة فلا يعمل على مساعدة المستغيث. وقد يهجو المستغيث قومه إذا تأخروا في إغاثته و لم يستجيبوا لندائه، وقد يتبرأ منهم ويتركهم ليلحق بقوم آخرين.

وللعرب خصوصًا أعراف أوجبت عليهم الطبيعة إطاعتها والعمل بها، لأن في تنفيذها مصلحة للجميع وفي الخروج عليها ضررًا بالغًا. من ذلك وجوب الأخذ بالثأر والبحث عن القاتل لقتله مهما طال الزمن، لأن «الدم لا يغسل إلا بالدم»، وقد دفع إلى ذلك العُرف طبيعة المحيط الذي عاش فيه العرب. فليس في البادية ما يحول بين قتل

---

[٢٣] ابن منظور: لسان العرب، مادة (حمي).

[٢٤] سورة الفتح آية ٢٦.

[٢٥] ابن منظور: لسان العرب، مادة (غوث).

www.mtenback.com

الناس بعضهم بعضًا إلا خوف الأخذ بالثأر، وقيام أهل القتيل والعصبية بالأخذ بدمه، ولولا الخوف من الأخذ بالثأر لعم القتل الحياة.

وقد عبروا عن هذا المعنى بشعرهم ونثرهم، من ذلك قول الشاعر:

أَيَا جَارَتَا إِنَّ الدِّمَا تَحقِنُ الدِّمَا وَبِالقَتْلِ تَنْجُو كُلُّ نَفْسٍ مِن القَتْلِ

ومن أمثالهم في هذا المعنى: «القتل أنفى للقتل».

ومتى أخذ بثأر القتيل بكته النساء، لأن من عادة نساء الجاهلية ألا يبكين المقتول إلا أن يدرك بثأره وإذا أدرك بثأره بكينه[٢٦].

وعلى الإنسان الوفاء لأهل عصبيته، ليس له مخالفتهم ومعاكستهم مهما كانت درجة الخلاف بينهم وبينه؛ لأنه واحد وهم جماعة، وإن أصابه ضيم فلا بد لجماعته من مواساته والانتصار له مهما كانت أسباب الفرقة وما يصيب جماعته سيصيبه ويؤثر في جماعته حتمًا.

وإذا تأخر الفرد عن القيام بواجباته تجاه قبيلته أو عمل عملاً ينقص شرفه أو شرف قبيلته أو أعراف أهله تخلت عنه قبيلته وحلفه وتبرأت منه وعاش عيشة صعبة لا يساعده أحد أو يؤويه خشية أن ينزل بهم أذى أو يترتب على قبول جواره تبعة تجاه من يقتص أثره طلبًا للثأر. ولذلك خُلع الصعاليك الذين تمردوا على أعراف قبائلهم واحترفوا النهب والسلب وأغاروا على الأغنياء يأخذون أموالهم فعاشوا مشردين، وتكتلوا وصاروا عصابات تغزو وتقطع الطرق.

وكانوا إذا خلعوا فردًا منهم أعلن أهله خلعه ليكون ذلك معلومًا عند أفراد قبيلته أو القبائل الأخرى فتسقط العصبية عندئذ عن الخليع عند إعلان قرار الخلع.

---

[٢٦] الآلوسي، السيد محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المكتبة الأهلية، القاهرة، (١٣٤٣هـ)، ج٣، ص١٢٢.

www.mtenback.com

وكان الحج من المواسم المناسبة لإعلان خلع الحلفاء، وكذلك مواسم الأسواق كسوق عكاظ. فهي مواسم تُجَمِّع، ينادي فيها المنادي بخلع من يراد خلعه. وكان أهل مكة يكلفون مناديًا بالطواف بالأحياء ينادي بأعلى صوته عن خلع الخليع. وقد يكتبون كتابًا يحفظونه عندهم أو يعلقونه في محل عام ليقف عليه الناس[٢٧].

وليس للفرد أن يترك دين آبائه ويؤمن بدين آخر، وإلا عَرَّض نفسه للتعذيب والتنكيل، ويحدثنا القرآن في آيات كثيرة أنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[٢٨]. وجاء في سورة سبأ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾[٢٩].

وتحدثنا كتب السيرة بأنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر. و كان أمية بن خلف يخرج بلال بن رباح إذا حميت الظهيرة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول، وهو في ذلك: أحد أحد»[٣٠].

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ــ وكانوا أهل بيت إسلام ــ إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة؛ فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول:

---

[٢٧] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، ج٨، ص٥٢..

[٢٨] سورة البقرة: ١٧٠.

[٢٩] سورة سبأ: ٤٣.

[٣٠] ابن كثير القرشي، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو: السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، (د.ت)، ص٢٤٢.

www.mtenback.com

«صبرًا آل ياسر موعدكم الجنة»[٣١]. ويروي البيهقي بسنده أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال: «أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة»، فأما أمه فكادوا يقتلونها فأبت إلا الإسلام[٣٢].

من كل ما تقدم نجد أن الحرية نسبية، وهي كذلك في مجتمع العرب الذين تغنوا بالحرية وهاموا بها وعدُّوا من أهلها والداعين لها.

أنواع الحريات عند العرب:

الحرية الدينية:

كان العرب في الجاهلية على أديان شتى ومذاهب متفرقة: فمنهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة[٣٣]، ومنهم من آمن بالله وعبد الأصنام واتخذها وسائط ووسائل تقربهم إلى الله زلفى، وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وكان منهم دهريون أنكروا الخلق والبعث والجزاء. وقد كانت كل هذه الأديان الجاهلية تحد من الحرية وتصادرها مع ما فيها من الشرك.

وعندما جاء الإسلام حافظ المسلمون على مبدأ الحرية في معاملتهم وحروبهم مع أهل الأديان الأخرى، فكانوا يسمحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة. وكانوا في مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويتركونهم على عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم. وفي هذا يقول عمر بن الخطاب رضي

---

[٣١] المصدر نفسه، ص٢٤٣.

[٣٢] ابن كثير القرشي: السيرة النبوية، ص ٢٤٤.

[٣٣] انظر: الشهرستاني، أبو الفتح، محمد بن أبي بكر: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (د.ت)، ج١، ص٢٤١.

www.mtenback.com

الله عنه في معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم، أمنًا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم، لا تسكن كنائسهم ولاتهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها، لايكرهون على دينهم،ولا يضار أحد منهم»[٣٤].

والمبدأ الثاني الذي حافظ المسلمون عليه في معاملتهم مع أهل الأديان الأخرى هو حرية الجدل والتزام جادة العقل والمنطق مع أهل الأديان الأخرى، وأن يكون العماد الإقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل. وفي هذا قال الله تعالى مخاطبًا رسوله عليه السلام: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣٥]. وقال مخاطبًا أهل الأديان الأخرى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٦]. ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[٣٧]. وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٨]. ولا يكتفي القرآن بذلك، بل يغري الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم، ليبين بالحوار والجدل العلميّ من على حق ومن على باطل. قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٣٩].

---

[٣٤] الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر بن واقد: فتوح الشام، القاهرة، مكتبة محمد علي صبيح، (١٣٤٨هـ)، ج١، ص٢٤٢

[٣٥] سورة النحل: ١٢٥.

[٣٦] سورة البقرة: ١١١.

[٣٧] سورة الأنعام: ١٤٨

[٣٨] سورة الأحقاف: ٤.

[٣٩] سورة سبأ: ٢٤.

www.mtenback.com

والمبدأ الثالث الذي سنه الإسلام في هذا الباب هو أن الإيمان الصحيح ما كان منبعثًا عن يقين و اقتناع لا عن تقليد واتباع، وأهاب بالناس أن يجعلوا عماد الاعتقاد والدين الدليل العقلي والمنطق السليم ودعا إلى النظر والتفكير. وقد عاب الله على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٤٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٤١].

والمبدأ الرابع هو إباحة الاجتهاد في فروع الشريعة، لكل قادر عليه وهو المتمكن من الكتاب والسنة واللغة العربية وقواعد الاستنباط، فيباح لكل مسلم تحققت له هذه الشروط أن يجتهد ويستنبط الأحكام من أصولها وأدلتها بما يراه ويجهر بما انتهى إليه رأيه. والإسلام يكفل له حرية التعبير ويحمي حريته ويحترم رأيه، ولو كان غير صحيح في رأي غيره أو كان مجانبًا للحق في الواقع. فمن المقرر في الشريعة أن المجتهد مأجور في حالتي صوابه وخطئه، فإن أخطأ فله أجر، وإذا أصاب فله أجران وهذا مبدأ من مبادئ الحرية التي كفلها الإسلام.

وعلى هذا المبدأ سار الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم، فكان كل منهم يعتمد على اجتهاده الخاص متى كان قادرًا على ذلك، ويبيح لغيره الاجتهاد، ويحترم رأي غيره متى كان قائمًا على دليل من الكتاب أو السنة، بل يرجع عن رأيه ويأخذ برأي غيره إذا تبين له رجحان هذا عن ذاك.

---

[٤٠] سورة البقرة: ١٧٠

[٤١] سورة المائدة: ١٠٤

www.mtenback.com

حرية التفكير و التعبير:

المقصود بحرية التفكير والتعبير أن يكون للإنسان الحق في أن يفكر تفكيراً مستقلاً في جميع ما يكتنفه من شؤون، وما يقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير.

والتاريخ يحفظ لحركة التفكير في المجتمع العربي القديم مستوى خاصاً بها بين أنظمة التفكير بوجه عام. فقد أخذت حركة التفكير في الحياة العربية القديمة نظام السوق العلمية إلى جوار السوق التجارية. فقد كانت لهم أسواق أدت دوراً مهماً في حياتهم الدينية والثقافية والاجتماعية والعلمية والفكرية.

وأسواق العرب كانت إما ثابتةً، في المدن والقرى، وأماكن السكن، وإما موسميةً تعقد في مواسم الأسواق، وكانت هذه تقوم في مواضع متناثرة من جزيرة العرب، واقتصر بعض هذه الأسواق على ما يجاوره من القرى، ومنها ما كان يفد إليه الناس من أطراف الجزيرة العربية كلها.

و لم تكن هذه الأسواق مقصداً للتجارة وحدها، فقد كانت ملتقى أدبياً يتناشدون فيه الأشعار، ويلقون فيه الخطب ويتفاخرون ويتنافرون. ومن مظاهر حرية التفكير والتعبير أن الشعراء يزدحمون فيها من جميع جهات بلاد العرب، فيظهر الشاعر بمظهر الشجاعة وشدة الحماس، وأرباب المجالس ثابتون في أماكنهم، فينشد قصيدته بتمامها، دون أن يقطعها عليه أحد، وهم حريصون على سماعها منه في حرص على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها ليحفظوها. وكان لهم حكام يفصلون بين المتنافسين ويرضى الجميع بأحكامهم. و لم تكن هذه الأسواق خاصة بالعرب وحدهم، بل كان يحضرها غيرهم من الأمم والأجناس الأخرى، ويفد إليها من أراد، في أمن وحرية واطمئنان.

www.mtenback.com

أشهر أسواق العرب:

سوق عكاظ:

هو موسم معروف للعرب، بل كان أعظم مواسمهم وأسواقهم، وهو نخل في وادٍ بين مكة والطائف، إلى الطائف أقرب، بينهما عشرة أميال[٤٢]. وكانوا يتبايعون فيها ويتفاخرون ويتحاجون وينشد الشعراء ما جدّ لهم. وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسان بن ثابت[٤٣]:

سَأَنْشُرُ إِنْ حَيِيْتُ لَهُم كَلاَمًا ... يُنَشَّرُ فِي الْمَجَامِعِ مِنْ عُكَاظِ

ولما كانت عكاظ معرضًا تجاريًا لقبائل العرب كافة فقد كانت كذلك منتدى اجتماعيًا حافلاً بكل ألوان النشاط الاجتماعي في حياة العرب من منابر متنوعة ونداءات غوث تطلق، وقصائد فخر تنشد، وخطب تلقى، وأحكام تنشر ورايات ترفع، وأسلحة توضع، ورقيق يباع، وإعلانات تذاع، ومسابقات ومفاخرات، ووعظ وتبشير، ومعاهدات. ولولا ما تمتع به العرب من احترام الحرية والإيمان بأهميتها لحياتهم ما تم لهم مثل هذه الاجتماعات في الأسواق التي يعلن كل من فيها رأيه ويعبر عن أفكاره.

ومن مآثر عكاظ أن العرب، كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع راية غدر بعكاظ معلنًا به على الناس جميعًا قائلاً: ألا إن فلانًا ابن فلان قد غدر، فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه، ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه. فقد صدر في حقه حكم عكاظ وهو عقوبة العزل من المجتمع!!

وكان الرهبان والأحبار والحكماء يردون السوق يَعِظُون ويبشّرون، ويذكّرون البعث والحساب والجنة والنار. وكان من هؤلاء خطباء وشعراء أمثال قس بن ساعدة الإيادي، وأمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد.. وكانت لهؤلاء مسحة خاصة في

---

[٤٢] الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص٢٦٧.

[٤٣] الأنصاري، حسان بن ثابت: ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، بيروت، ص١٤١.

www.mtenback.com

خطبهم وأشعارهم مطبوعة بطابع ديني، تزهّد في الدنيا وشؤونها، وتدعو إلى التأمل والنظر في الكون، وتركز على موضوع الإيمان بالله على نحو ما كان معروفًا في العقائد والسنن العربية في الجاهلية، وهو ضرب من السماحة والحرية في الرأي والرأي الآخر.

وكانت عكاظ كذلك منبرًا للإعلانات الاجتماعية العامة، فمن أراد أن يجير أحدًا هرع إلى عكاظ في موسمها، وهتف بذلك أمام العرب، ليكونوا على علم به، وليُبلغ الحاضر الغائب بما أعلن عبر الجريدة الرسمية لعرب سوق عكاظ!. والحرمان من الحقوق، أو إسقاط الولاء أو النفي، كل ذلك كان يدعى الخلع. وكان الرجل في الجاهلية إذا أراد أن يتبرأ من إنسان حالفه، جاء به إلى الموسم في عكاظ، ثم نادى بين الناس أنه خلعه من جواره، فإن جرّ لم يضمن وإن جُرّ عليه لم يطلب، وهو صورة من صور الحرية المقننة. وقد جاء في لسان العرب في معنى الخلع[٤٤] أن الرجل قد يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه، فيتبرؤون منه، ويعلنون أنهم لا يؤاخذون بعد اليوم بجناياته، ولا يلاحقون أحدًا إذا جني عليه. وذلك سببه أن العرب كانوا يتعاهدون ويتعاونون على النصرة والنجدة وأن يؤخذ كل منهم بالآخر، فإذا أرادوا فسخ هذا التعاقد، أعلنوه على الناس في المواسم، وخير المواسم صلاحية لمثل هذا موسم عكاظ.

ومن أراد أن يستلحق امرأً بنسبه، أو بمعنى آخر أن يمنحه جنسية قبيلته، قام في عكاظ وأعلن ذلك بين القبائل لتعرفه. وحتى معاهدات الأمن التي كانت تعقد بين القبائل لا تصبح نافذة – تمامًا – ما لم تعلن في عكاظ بالموسم. وقد ذكر الأصفهاني أن العرب اجتمعوا بعكاظ، في سنوات قحط تتابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا، ألا يغزو بعضهم بعضًا حتى يعود الخصب.

ولعل أحسن الإعلانات، التي كانت تذاع في عكاظ، هو صوت المنادين، وهم يطوفون بين الناس في السوق يسألونهم: هل من رجل متعب فنحمله؟ أو جائع فقير

---

[٤٤] ابن منظور: لسان العرب، مادة (خلع).

www.mtenback.com

فنطعمه؟ أو خائف فنؤمنه؟ ما أجمل هذا النداء، وما أحلى وقعه في الأذن، وأين نحن منه الآن.

هذه صفة من صفات العرب في جاهليتهم ونوع من الحرية التي مارسها العرب قبل الإسلام والتزموا بها أيما التزام، و لم تكن هذه الأسواق خاصة بالعرب بل إنها اتسعت لغيرهم.

سوق مجنة:

بفتح الميم وكسرها، موضع قرب مكة بأسفل مرّ الظهران، وهي وادي فاطمة في أيامنا هذه. وهي التي عناها بلال رضي الله عنه بقوله حين تشوق إليها بعد الهجرة[٤٥]:

وَهَلْ أَرِدَنْ يَومًا مِيَاهَ مِجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطُفَيْلُ

وكان الناس يذهبون إليها بعد عكاظ ويقيمون فيها العشر المتبقية من ذي القعدة حتى يروا هلال ذي الحجة فينقلبون إلى ذي المجاز، وقيل كانوا يقيمون فيها عشرين يومًامن ذي القعدة قبل أن ينقلبوا إلى ذي المجاز.

وهذه السوق لكنانة، أرضها من أرض كنانة، وكان يجلب إليها ما يجلب إلى تلك الأسواق من متاع. وهي أقل شأنًا من عكاظ وذي المجاز لكنها تستوي معهما في نظر المحرمين من العرب، وتنال المكانة والتقدير. ومن الأسواق التي يجتمع فيها العرب من كل الجزيرة سوق ذي المجاز.

سوق ذي المجاز:

وسميت بذلك لأن إجازة الحج تكون منها إلى عرفات. وهي على ثلاثة أميال من عرفات بناحية جبل كبكب، وقيل: هي بمنى بين مكة وعرفات.

وهذه السوق من ديار هذيل، وهم أهلها وجيرانها، وتقام حين يهل شهر ذي الحجة فينصرف الناس من مجنة إليها، ويقيمون بها حتى اليوم الثامن من ذي الحجة،

---

[٤٥] الآلوسي: بلوغ الأرب، ج١، ص٢٦٦.

www.mtenback.com

وهو يوم التروية، سمي بذلك لأنهم كانوا يردون فيه الماء، ويملؤون أوعيتهم للمرحلة التالية، لأن عرفات ليس بها ماء.

وتأتي هذه السوق بأهميتها بعد عكاظ، وترجع مكانتها إلى أنها من مواسم الحج عندهم، تؤمها وفود الحجاج من سائر العرب، ممن شهد الأسواق الأخرى أو لم يشهدها. ويجري فيها ما يجري في غيرها من البيع والشراء وتناشد الأشعار والمفاخرة والمفاداة وقد ذكرنا الأسواق هنا لما يوجد فيها من مساحة كبيرة للحرية في القول والعمل والممارسة، وعندما جاء الإسلام شَحَّ مجال القول، ونشأ للعرب سوق آخر بدل أسواق الجاهلية وهو سوق المربد.

سوق المربد:

أشهر أسواق العرب بعد الإسلام ويقع في مدينة البصرة. والمربد في الأصل: بيدر التمر، لأنه يربد فيه فيشمس[٤٦].

وقد تحول إلى سوق للإبل في عهد الخلفاء الراشدين، حتى إذا كان عهد الأمويين اتسع وصار سوقًا عظيمة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليه الناس في كل يوم وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز ويطرقه الأشراف وسائر الناس، يتناشدون و يتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون. وكان له شأن كبير في ذلك العصر، حتى قال جعفر بن سليمان الهاشمي: العراق عين الدنيا،والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة، وداري عين المربد.

وكان للمربد شأن عظيم في اللغة قريبًا من شأن عكاظ، لولا امتياز عكاظ بموقعها في وسط الجزيرة العربية، وبعدها عن مناطق العجمة. ومهما يكن من أمر فقد كانت المربد منبرًا حرًا يعج بالفصحاء والأعراب وأعلام الرواة العلماء، يجمعون الفصاحات ويتصيدون الشواهد التي أسس النحاة عليها قواعدهم وأصلحوها. كما

---

[٤٦] الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة (ر ب د).

www.mtenback.com

كانت فيه حلقات الرجاز مثل رؤبة بن العجاج وأبي النجم العجلي، والشعراء مثل جرير والفرزدق، وذي الرمة والراعي النمري. وكانت المربد أيضًا ساحة مشهورة لفن خطير من فنون الشعر هو النقائض الذي يعد أشهر فن اتسعت فيه الحرية الشخصية.

واستمر المربد يؤدي رسالته وغرضه حتى العهد الأول من العصر العباسي، وقد ورث مكانة عكاظ وحل محلها، فكان قبلة العلماء والشعراء يأخذون عن مرتاديه ويدونون ما يسمعون، فكانت تلك أزهى أيامه.

الأسواق الموسمية:

عرفت الجزيرة العربية عددًا من الأسواق الموسمية من أهمها:

سوق دومة الجندل: كانت ملتقى طرق مهمة بين العراق والشام وجزيرة العرب، وموسمها شهر ربيع الأول إلى نصفه وموقعها مدينة الجوف الحالية.

سوق المُشَقّر: حصن قريب من مدينة هجر، وتعقد في جمادى الآخرة.

سوق هَجَر: وهي سوق التمر الذي يضرب به المثل، وتُعقد في ربيع الآخر.

سوق عُمان: بأرض عمان، يقصدها العرب بعد الفراغ من هجر ويقيمون بها حتى آخر جمادى الأولى، وتجتمع فيها تجارة الهند وفارس والحبشة مع تجارة العرب.

سوق حُباشه: وهي سوق تهامة القديمة، وكانت تقام في شهر رجب. وقد ورد في الخبر أن الرسول ﷺ دخلها بتجارة خديجة رضي الله عنها مرة.

سوق صُحَار: وهي مدينة على البحر بعمان وتعقد لعشر يمضين من رجب.

سوق الشّحْر: وهو الساحل الجنوبي بين عمان وعدن وهي مقصد تجارة البحر والبر، وتعقد في النصف من شعبان.

سوق عدن: وعدن جزيرة في اليمن يرحل إليها العرب بعد الشَحْر إلى أيام من رمضان.

www.mtenback.com

سوق صنعاء: وكانوا إذا ارتحلوا من عدن والشحر تقوم سوقهم بصنعاء في النصف من شهر رمضان إلى آخره، وصنعاء من أطيب بلاد اليمن.

سوق حضرموت: وكانت تعقد في النصف من ذي القعدة، وربما أقيمت هي وعكاظ في يوم واحد، فيتوجه بعضهم إلى هذه وبعضهم إلى تلك.

آثار أسواق العرب:

كانت هذه الأسواق معرضًا لحرية الرأي وحرية التجارة، لكل أحياء العرب في سائر مناطقهم، ومنتدى اجتماعيًا حافلاً بكل ألوان حياتهم. كذلك كانت منابر لحرية الرأي والتعبير. كما كانت مجامع لغوية وأدبية اهتدى العرب بواسطتها إلى تهذيب لغتهم لفظًا وأسلوبًا، وإلى جعل لغة الشعر والخطابة واحدة بين جميع القبائل. فكان لها كبير الأثر في ترسيخ الوحدة اللغوية بين العرب قبل الإسلام؛ مما هيأ لهجة قريش لأن تصبح اللهجة الرسمية وتصبح أفصح لغات العرب فتبوأت المكان الأعلى.

كما كان لهذه الأسواق أثر بارز في الأدب حيث كانت ساحات مشهورة لإنشاد الشعر وروايته ونقده، فقد كان للعرب في هذه الأسواق قضاة للشعر أو محكمون، تضرب لهم قباب حمر من أدم، ويتقدم منهم شاعر كل قبيلة فيعرض عليهم أشعاره فما استجاده القضاة فهو الجيد، وما حكموا بضعفه فهو الركيك.

وينتشر حول هذه القباب رواة الشعر والشعراء، ورجال القبائل من أقطار العرب كافة، يستمعون وينتظرون حكم القضاء، فما يكاد القاضي يصدر حكمه حتى يتناقل الرواة والناس المجتمعون القصيدة الفائزة وينشرونها في أحياء العرب، فتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر، وتسير لصاحبها شهرة بين القبائل تشجعه وتحمس الشعراء لعمل مماثل، تخليدًا للذكر وأملاً بالحصول على الشهرة.

كما كان لهذه الأسواق أثر بارز في الدين. فمن المعروف أن العرب في الجزيرة ألزموا أنفسهم بإلقاء السلاح، خلال هدنة مقدسة تمتد أربعة أشهر من كل سنة، هي

www.mtenback.com

أشهر رجب، ذوالقعدة، المحرم ذوالحجة.. هذا بالإضافة إلى المناطق التي تحيط بالكعبة فهي حرم دائمًا، لأنها بيت الله أقيمت للعبادة ولا يحل فيها القتال. وقد كان من أكبر العار عند العرب، أن يتجاوز الإنسان حدود البلد الحرام، والشهر الحرام بعدوان أو بغي أو قتال.

وألزم العرب أنفسهم برعاية الحرمات، وحفظوا للأماكن المقدسة قدسيتها، وللأشهر الحرم حرمتها، وللقائمين على الكعبة منزلتهم، وكفوا أيديهم عن القتال والفتك بالناس. وصانوا أنفسهم عن المظالم، وأنكروا الاستهانة بالحرمات والاستخفاف بالمقدسات. من أجل هذا سمت العرب حروب قريش وهوازن في موسم عكاظ حروب الفجار، لأنها عدّتهم فاجرين، لسبب اقتتالهم في الشهر الحرام.

أما الذين كانوا يستحلون ظلم الناس - إذا حضروا الأسواق، فيسرقون ويفتكون ولا يحفظون للمكان أية حرمة، ويرتكبون المنكرات في أشهر الحج - فقد سمتهم العرب المحلين لما قاموا به من إحلال المحرمات.

ويدخل في هذه الطائفة صعاليك العرب، وهؤلاء جميعًا كانوا يخرقون القاعدة الأمنية باستمرار. أما قريش وهوازن فقد خرقوا هذه القاعدة في حروب الفجار فقط، وهو أمر يمكن وقوعه. إذ إن للحرب قواعد استثنائية. لكن ذلك كله يدلنا على مبلغ اهتمام العرب بالحرية وحبهم لها وتطلعهم لتحقيق ما يمكن تحقيقه منها. وقد حققوا في جاهليتهم نوعًا من الحرية قد يكون أقرب لما يناسب حالهم ومعاشهم.

الحرية الاجتماعية:

عاش العرب في الجاهلية حياة قاسية في بيئة مجدبة قليلة الضرع نادرة الزرع، شحيحة بالخير عامة، ولكنهم استعاضوا عن هذا الفقر المادي بأعظم الغنى وأكثره امتنانًا وإسعادًا ذلك هو الحرية والإباء. قست عليهم الطبيعة فحرمتهم كثيرًا من الوسائل المادية الحسية التي يترفّه بها أهل الحضر، ولكنهم استمتعوا بخير ما يستمتعون

www.mtenback.com

به، فعاشوا في الصحراء أحرارًا كالهواء، طُلَقاء كالطير، قلوبهم كالصخر، وأنفسهم منبسطة كالبطحاء ومشاعرهم صافية كالشمس المشرقة والبدر السافر.

كانت الحرية طبيعة العرب منذ أقدم عصور التاريخ، فقد روى ديودروس الصقلي أن الأنباط - وهم من بلاد الحجر العربية - كانوا ممتنعين من بذر القمح وغرس الأشجار المثمرة وبناء البيوتات لما في هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعًا[٤٧]. وقد أعجب هيرودوس وغيره من كتاب اليونان والرومان بحب العرب للحرية، ولمقاومتهم للاسترقاق، فذكروا أنهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية التي لم تخضع لحكم الفرس. فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم، وإنما اضطروا إلى معاملتهم معاملة أصدقاء حلفاء، فقدموا لهم خدمات جليلة سهلت لهم فتح مصر، ولو كان العرب في حرب مع الفرس لما تمكنوا قط من حملتهم على مصر[٤٨].

وتروي الأخبار قصة عمرو بن كلثوم مع عمرو بن هند، عندما استعلت أمه على ليلى أم عمرو بن كلثوم وأرادتها أن تقوم منها مقام الوصيفة، فصاحت: واذلاه! يا لتغلب، فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند[٤٩]. وكانت هذه الحادثة سبب قوله معلقته المملوءة فخرًا التي يقول فيها[٥٠]:

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِيْنَا

بِأَيّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... نَكُونُ لِقَيلِكُمْ فِيْهَا قَطِيْنَا؟

---

[٤٧] جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: محمد صادق رستم، المطبعة السلفية، مصر، (١٣٤١هـ)، ص٩٣.

[٤٨] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٤٠٨.

[٤٩] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج٩، ص١٨٢.

[٥٠] التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد: شرح القصائد العشر: ص٤١٥. القيل: الملك، القطين: التابع والخادم.

www.mtenback.com

بِـأَيِّ مَشِـيْئَة عَمْـرَو بْـنَ هِنْـدٍ تُطِيْـعُ بِنَـا الْوُشَـاةَ وَتَزْدَرِيْنَـا
تَهَدَّدْنَـا وَأَوْعِدْنَـا رُوَيْـدًا مَتَـى كُنَّـا لأُمِّـكَ مَقْتَوِيْنَـا[51]
فَـإِنَّ قَنَاتَنَـا يَـا عَمْـرُو أَعْيَـتْ عَلَـى الأَعْـدَاءِ قَبْلَـكَ أَنْ تَلِيْنَـا
وَنَحْـنُ التَّـارِكُوْنَ لِمَـا سَـخِطْنَا وَنَحْـنُ الآخِـذُوْنَ لِمَـا رَضِيْنَـا
وَأَنَّـا الْمَـانِعُونَ لِمَـا أَرَدْنَـا وَأَنَّـا النَّـازِلُونَ بِحَيْـثُ شِـيْنَا
وَأَنَّـا الْعَـاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَـا وَأَنَّـا العَـازِمُوْنَ إِذَا عُصِيْنَـا
إِذَا مَا الْمَلْكُ سَـامَ النَّـاسَ خَسْـفًا أَبَيْنَـا أَنْ نُقِـرَّ الـذُّلَّ فِينَـا

وكيف يقيم العربي على ضيم أو يحبس نفسه في مذلة، وقد علم أنه لا يرضى بالضيم إلا الحمار ووتده؟ قال المتلمس الضُّبَعي[52]:

ولا يُقِيْمُ عَلَـى ضَيْـمٍ يُـرَادُ بِـهِ إِلاَّ الأذلان عَـيْرُ الحَـيِّ والوَتَـدُ

ثم هو شجاع لا يتهيب الموت وإنما يقدم عليه ويقبل، والحياة الجديرة بالحفاظ في نظره، إنما هي حياة البطولة والفتوة والقوة والحرية السمحة والاستقلال في الرأي والإرادة فلماذا يقبل العبودية؟ إن الناس تستعبدهم الشهوات والمطامع والبقيا على الحياة، وإن كانت مرنقة مقيدة، ولكن العربي بعيد عن هذا كله.

وكان من آثار الشعور بالحرية والإباء أن ملأ العربي الصحراء فخاراً بقوته وعدته، وهل يفخر بالقوة إلا الحر؟ إنه يرضي كبرياءه بهذا الفخر، ويخيف أعداءه. يقول طرفة بن العبد[53]:

---

[51] مقوتين: خدّام، العارمون: أصحاب الشراسة.

[52] المرزوقي الأصفهاني: شرح حماسة البحتري، ص١٩

[53] ديوان طرفة بن العبد: ص٣٣-٣٤

www.mtenback.com

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّـذِي تَعْرِفُونَـهُ ... خَشَاشٌ كَـرَأْسِ الحَيَّـةِ الْمُتَوَقِّـدِ
فَآلَيْتُ لاَ يَنْفَـكُّ كَشْـحِي بِطَانَـةً ... لأَبْيَضَ عَضْـبِ الشَّـفْرَتَيْنِ مُهَنَّـدِ
حُسَامٌ إِذَا مَا قُمْـتُ مُنْتَصِـرًا بِـهِ ... كَفَى الْعَوْدَ مِنْهُ الْبَدْءُ لَيْسَ بِمُعْضَـدِ
أَخِي ثِقَـةٍ لاَ يَنْثَنِـي عَـنْ غَوَايَـةٍ ... إِذَا قِيْلَ مَهْلاً قَالَ حَـاجِزُهُ: قَـدِي
إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السِّـلاَحَ وَجَدْتَنِـي ... مَنِيْعًـا إِذَا بُلَّـتْ بِقَائِمِـهِ يَـدِي

وكأنهم لم يكفهم التفاخر بالقوة والشجاعة والبأس على أنه بين أفراد أو قبائل، بل أبوا إلا أن يفخروا بتعاليهم على الملوك كما تقدم في معلقة عمرو بن كلثوم.

وهذا جابر بن حُنَيّ التغلبي يوبخ الملوك الذين لا يستحون منهم ويتقون محارمهم، مخافة أن ينتقموا منهم، ويقول: إنهم يسألون الملوك ما سالوهم وما عدلوا، ولكنهم يقتلونهم إن جاروا، وليس قتل الملوك عندهم حراماً ولا محالاً، وهم بهذه الصورة أنداد الملوك ونظراؤهم، وطالما أنزلوا العنف بالملوك الذين احتقروا قومهم ولم يحسنوا السيرة[٥٤]:

نُعَاطِي الْمُلُوكَ السِّلْمَ مَا قَصَدُوا بِنَـا ... وَلَيْـسَ عَلَيْنَـا قَتْلُهُـم بِمَحْـرَّمِ
وَكَائِن أَزَرْنَا الْمَوْتَ مِنْ ذِي تَحِيَّـةٍ ... إِذَا مَا ازْدَرَانَـا أَوْ أَسَـفَّ لِمَـأْتَمِ

ومثله قول الشراح بن عوف الكناني[٥٥]:

أَبَيْنا فَـلا نُعْطِـي مَلِيكًـا ظُلامَـةً ... وَلا سُـوْقَةً إِلاَّ الوَشِـيْجَ الْمُقَوَّمَـا
وَإِلاَّ حُسَامًا يَـبْرُقُ العَيْـنُ لَمْحُـهُ ... كَصَاعِقَةٍ فِي غَيْـثِ مُـزْنٍ تَرَكَّمَـا

[٥٤] شيخو، لويس: شعراء النصرانية، لبنان، ص١٨٩-٢٩٠

[٥٥] المرزوقي الأصفهاني: شرح حماسة البحتري، ص٢٣

www.mtenback.com

المجتمع العربي:

كانت القبيلة عماد الحياة في الجاهلية، بها يحتمي الرجل في الدفاع عن نفسه وعن ماله، والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو النسب. ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد، وبدم واحد وبصلب جد واحد أعلى، من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم. ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة إلى جد أعلى، ثم يرجعون أنساب الجدود إلى أجداد القبائل، ثم إلى أجداد أقدم وهكذا، حتى يصلوا إلى جدّي العرب: قحطان وعدنان.

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها[٥٦]. فهي إذن: جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها وهي تنتمي كلها إلى أصل واحد وجذر راسخ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة.

والقبائل أنماط ودرجات: منها قبائل قوية نشيطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها، ومنها قبائل أقل شأنًا وقوة، تتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها، لتكوّن من الحلف كتلة مهابة. وقبائل أصغر ليست لها القدرة على الدفاع عن حياضها وحدها، لذلك تركن إلى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها[٥٧].

وأساس النظام القبلي هو العصبية للأهل والعشيرة والقبيلة. فكل عربي معتز بنفسه يأنف أن يخضع لغيره، فلا يدين لرئيس أو حاكم إلا إذا كان من القبيلة نفسها وذا مميزات يمتاز بها كالشجاعة أو الحسب أو الذكاء أو السن، وهم يخضعون لمشايخهم خضوع عصبية وائتلاف، لا خضوع تملك وسلطان.

---

[٥٦] الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس: ج٨، ص٧٣ (قبل).

[٥٧] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٣٣١.

www.mtenback.com

ومن شروط العصبية القبلية قبل الإسلام أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وليس له أن يسأل: أهو ظالم أم مظلوم. وفي ذلك قال الشاعر[٥٨]:

إِذَا أَنَا لَمْ أَنْصُرْ أَخِي وَهُوَ ظَالِمٌ عَلَى القَوْمِ لَمْ أَنْصُرْ أَخِي حِيْنَ يُظْلَمُ

وقال الشاعر قريط بن أنيف[٥٩]:

قَوْمٌ إِذَا الشُّرُ أَبْدَى نَا جِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ ووحْدَانَا

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

ويفرض قانون العصبية على القبيلة تحمّل التبعات، إذ جعلتها تبعية جماعية، فإذا أتى رجل جناية قَتْل، تكون قبيلته مسؤولة عن جنايته، وعليها تقع تبعة قتل القاتل إذا تعذّر الأخذ بالثأر منه، أو تعذّر تسليم القبيلة له، كما يقع على القبيلة دفع الديات إذا عجز القاتل أو أهله عن دفعها. ومن هنا خضعت إرادة العربي وحريته المتطرفة لقانون الجماعة أي لسلطان العصبية، فصار واجبًا عليه أن يضع نفسه تحت إمرة القبيلة، وذلك بتلبية ندائها حين يبلغه ذلك النداء، وتقديم نفسه طائعًا مختارًا لإمرة القبيلة ليدافع عنها أو ليشترك معها في الغزو، ليس له أن يفر أو يعتزل أو يتلكأ، فهذا واجب مفروض عليه إذا خالفه خالف جماعته، وخسر حمايتها، وصار مسبوبًا من الناس. وهذه الطاعة مثل من الحرية التي يختارها دون إكراه من سلطة أو قوة لأنه ينقاد للعرف دون أن يشعر أن حريته هي ما تمليه عليه العادات السائدة في المجتمع.

ويبقى الفرد متمتعًا بعطف قبيلته عليه، وبحمايتها له ما دام قائمًا بواجباته المترتبة عليه، شاعرًا بعظم التّبِعَة. فإذا أجرم أو عمل عملاً ينافي شرفه أو شرف قبيلته، واستمر

---

[٥٨] ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٦٠٦.

[٥٩] المرزوقي الأصفهاني، أبو علي بن محمد بن الحسن: شرح حماسة أبي تمام، تحقيق: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، (١٩٦٧م)، ج١، ص٢٧.

www.mtenback.com

في غيه لا يسمع نصائح أهله وعشيرته، كاسرًا أعراف آله وقبيلته، فقد عصبية أهلـــه وقبيلته له، وهام على وجهه طريدًا يلتمس مجاورة رجل من عشيرته أو قبيلة أخـــرى قريبة من موطنه أو بعيدة عنه، وتكون هذه الفترة من حياة الإنسان شر فترة في حياته، ولا يهدأ للطريد بال إلا إذا وجد له حليفًا أو جارًا يتعهد له بحمايته ويبذل العصبية له، بالدفاع عنه ويقال للرجل الذي تغضب عليه قبيلته وتحرمه عطفها وعصبيتهـــا لـــه: الخليع، ويقال ذلك لمن يخلعه أهله أيضا. وقد يقال له الرجل اللعين، أي المطرود[٦٠].

وربما خلعوا الرجل من القبيلة ولو كان من صميمها، ويسقط عن أهله وقبيلتـــه كل واجب يترتب عليهم أو عليها إذا عمل عملاً يستوجب خلعه، كما تســـقط عـــن القبائل التي قد تتعرض للخليع بشر كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه، لخلع أهلـــه أو قبيلته له، وتبرئهم أو تبرئها منه، فلا يطالبون بثأر.

ولا بد من إعلان خلع أهل الخليع، أو خلع قبيلته له وتبرئها منه، ليكون ذلـــك معلومًا عند أفراد قبيلته أو القبائل الأخرى، فتسقط العصبية عندئذ عن الخليع، عنـــد إعلان قرار الخلع، وإلا بقيت في رقبة أولياء أمره وقبيلته، كأن يعلن الأب في المواقـــع العامة وفي المواسم أنه خلع ابنه، بأن يقول: ألا إني قد خلعت ابني هذا، فإن جَـــرَّ لم أضمن، وإن جُرَّ عليه لم أطلب. أو يعلن قومه: إنّا خلعنا فلانًا، فلا نأخذ أحدًا بجنايـــة تُجنى عليه، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها.

لقد عاش الخلعاء عيشة صعبة فلا أحد يساعدهم أو يؤويهم خشية أن ينزل بهم أذى أو يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتفي آثارهم طلبًا للثأر منهم. وبذلـــك تكتل الصعاليك أحيانًا وكونوا عصابات تغزو وتغير وتقطع الطريق. وكـــان الشـــاعر عروة بن الورد ـــ وهو منهم ـــ يجمع حوله الصعاليك والفقراء ويغزو بهم ويرزقهـــم مما يغتنمه. ولذلك سمي عروة الصعاليك[٦١]. لقد كان الخلع أحد مصادر الحريـــة عنـــد

---

[٦٠] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٨، ص٥٢.

[٦١] ابن منظور: لسان العرب: مادة (صعلك)، ج١٠، ص٤٥٦.

www.mtenback.com

العرب حيث لم يكونوا أسرى العادات والعصبيات، بل إنهم يتحررون من قيود المجتمع عند الضرورة ويقومون بممارسة حرية الإرادة وحرية اتخاذ القرار حتى في مثل الخلع وما يترتب عليه من أضرار اجتماعية.

وكان العرب في جاهليتهم أفخر بأنفسهم، يترفعون عن غيرهم من الشعوب الأخرى التي كانوا يطلقون عليها اسم الأعاجم، وكانوا يرون أنهم دونهم في المنزلة والكرامة. وقد ترتب على عقيدتهم هذه كثير من الأمور في علاقاتهم بالشعوب الأخرى وأنظمتهم. ومعاملاتهم. فمن ذلك أن العربي ما كان يقبل أن يزوج ابنته من أعجمي مهما كان عظيمًا، ويرى في ذلك امتهانًا له ولإنسانيته وإنسانية ابنته. ويروي المؤرخون أن أحد ملوك الفرس وهو كسرى أبرويز خطب حُرَقة بنت النعمان بن المنذر، فرفض النعمان مصاهرته خضوعًا لهذه التقاليد، مع ما يقال من أن النعمان كان من ولاة كسرى والخاضعين لسلطانه، فثارت لذلك ثائرة كسرى، فاستقدم عامل العرب إلى المدائن (عاصمة الفرس في ذلك الوقت) وتهدده بشتى صنوف العذاب، فلم يزده إلا محافظة على تقاليد قومه، فأمر بطرحه تحت أقدام الفيلة وسَوَّى معالم جسمه بالتراب. وظن كسرى أن ذلك سيوقع الرعب في نفوس العرب، فطلب كسرى حرقة إلى هانيء بن مسعود بن عامر الشيباني (من بني بكر بن وائل)، الذي استودعه النعمان ماله وأهله وولده قبل سفره إلى المدائن، فلم يكن نصيبه منه بأجمل من نصيبه من صاحبه، فأرسل فيالقه لتوقع الخسف بهذه الأمة التي استأسدت في وجهه واحتجزت فتاتها دونه، فاستنفر هانيء معظم قبائل العرب والتقت جيوشهم بجيوش الفرس في موقعة (ذي قار) الشهيرة التي انتهت بانتصار العرب على الفرس وتحررهم من سلطانهم[٦٢].

[٦٢] ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ج٣، ص١١٣-١١٤.

www.mtenback.com

وقد قال أبو كلبة التيمي يفخر بيوم ذي قار[٦٣]:

لَولاَ فَوَارِسُ لاَ مِيْلٌ وَلاَ عُزُلُ[٦٤] مِنَ اللَّهَازِمِ مَا قِظْتُمْ بِذَي قَارِ

مَا زِلْتُ مُفْتَرِسًا أَجْسَادَ أَفْتِيَةٍ تُثِيْرُ أَعْطَافَهَا مِنْهَا بِآثَارِ

إِنَّ الْفَوَارِسَ مِنَ عِجْلٍ هُمُ أَنِفُوا مِنْ أَنْ يُخَلُّوا لِكِسْرَى عَرْصَةَ الدّارِ

لاَقُوا فَوَارِسَ مِنْ عِجْلٍ بِشِكَّتِهَا لَيْسُوا إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبٌ بأغمارِ[٦٥]

قَدْ أَحْسَنَتْ ذُهْلُ شَيْبَانٍ وَمَاعَدَلَتْ فِي يَوْمِ ذِي قَارَ فُرسَانُ ابْنِ سَيَّارِ

هُمُ الَّذِيْنَ أَتَوهُمْ عَنْ شَمَائِلِهِمْ كَمَا يُلَبِّسُ وُرَّادٌ بِصُدّارِ

الناس منازل ودرجات:

نظر عرب الجاهلية إلى أنفسهم على أنهم منازل ودرجات وأنهم غير متكافئين، وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال. ومظهر التفاوت بين أهل الحضر أكثر منه بين أهل البادية، لأن أهل الوبر كان كل واحد منهم فخوراً بنفسه يرى أنه شريف مثل غيره و إن قلّ ماله وشح. ثم إن التفاوت بين الطبقات لا يمكن أن يظهر في البادية ظهوره بين الضواحي والقرى، لأن طبيعة البادية لا تساعد على ظهور ذلك التباين، حتى إن عبيد الوبر لم يكونوا طبقة خاصة مضطهدة، ينظر إليها نظرة أهل القرى بازدراء، بل كانوا يُعَدُّون في البادية من أعضاء الأسرة ومن طبقات المجتمع[٦٦].

---

[٦٣] أبوالفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٢٣، ص٢٣٧.

[٦٤] الميل: جمع الأميل وهو الجبان.

[٦٥] قلّصت: شمرت.

[٦٦] انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٥٤٥.

www.mtenback.com

السيادة:

لم تكن الحرية التي تغنّى بها العربي وطلبها وهام بها مجردة، بل هناك تراتب اجتماعي منظم له قوانينه وضوابط سلوكه، وقد كان هناك سادة القوم وأشرافهم ورؤساؤهم. والسيادة منزلة ودرجة لا تأتي أحدًا إلا باعتراف قومه بسيادته عليهم، وهم الذين يفوقون غيرهم بالعقل والمال والنفع. وكانوا إذا سَوَّدوا شخصًا عَصَّبوه، أي ألبسوه عصابة وهي العمامة، والتعصيب التسويد، ولهذا كانوا يسمون السيد المطاع مُعَصَّبًا.

ويذكر أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كانوا لا يسوّدون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان. وقد سئل أحد السادات: بأي شيء سُدتَ قومك؟ فقال: إني والله لأعفو عن سفيههم، و أحلم عن جاهلهم، وأسعى في حوائجهم، وأعطي سائلهم، فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن فعل أحسن من فعلي فهو أفضل مني، ومن قصر عن فعلي فأنا خير منه[٦٧].

ومن أعراف الحكم عند القبائل: أن سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته ووجوهها في الأمور المهمة التي تخص حياة القبيلة، ليستنير برأيهم وليعرف رأي أتباعه في معالجتها. وقد استبد بعض سادات القبائل برأيهم، ولجأ بعضهم إلى القسوة والقهر والغطرسة في الحكم، فكان مصيرهم القتل حين تعارضت سياستهم مع حرية القرار والشورى التي كانت هي أساس التعامل الاجتماعي في محيط القبيلة.

ومن شيم السادة حمل أثقال الديات، إذا لم يكن من الممكن للأسر الفقيرة دفع دية القتلى حين توزع في العشيرة أو القبيلة، بذلك يحملها السادة عن الضعفاء.

---

[٦٧] الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، ص١٨٧.

www.mtenback.com

ومن خصال السادة المن على الأسرى بفك رقابهم وإعطائهم حريتهم ولو بشراء أسراهم بثمن.

ومن شيم الرجال العفو عند المقدرة والحلم والصفح عن المسيء، وكان من عادتهم في غفران الذنب حفر حفرة ثم ينادي من يريد غفران الذنب والعفو عن المذنب: اشهدوا أني جعلت ذنبه في هذه الحفرة، ثم يردّ فيها ترابها، وبذلك يغفر الذنب[٦٨]. وكل ذلك يتخذه العربيّ الحُرّ قرارًا حُرًّا لا يتدخل فيه غيره.

وتُعَدُّ الأسر الحاكمة التي ينشأ منها عدد كبير من الملوك والحكام أسرًا عريقة من الشرف وينظر إليها نظرة تقدير واحترام، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أبا بعد أب، وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم على قبائلهم أبًا عن جد؛ فإنهم يفخرون بذلك على غيرهم، لأنهم ليسوا من أولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة على حين كان آباؤهم أو أجدادهم من الخاملين.

هذا عامر بن الطفيل، وهو ابن سيد القبيلة، وقد صار سيدها بعد وفاة والده، يفتخر بنفسه ويذكر أن سيادته هذه لم تأت إليه عن وراثة، وإنما جاءته بفعاله وبدفاعه عن قومه وذوده عن حماهم، فسودوه لهذه الخصال عليهم، و لم يسودوه لأنه ابن سيد عامر، فقال[٦٩]:

وَإِنّي وإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيّدِ عَامِرٍ ... وَفَارِسَها الْمَشْهُورَ فِي كُلّ مَرْكَبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُوْ بِأُمٍ وَلاَ أَبِ

وَلَكِنَّنِي أَحْمِي حِمَاهَا وَأَتّقِي أَذَاهَا ... وَأَرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمنكَبِ

---

[٦٨] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٥٨٥.

[٦٩] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة، (١٣٦٤هـ) ج٢، ص٩٥.

www.mtenback.com

وهذا بشامة بن الغدير، يقول في شعر له[٧٠]:

وَجَدْتُ أَبِي فِيهِمْ وَجَـدّي كِلَيْهِمَـا يُطَاعُ وَيُؤْتَى أَمْـرُهُ وَهْـوَ مُحْتَبِـي

فَلَـمْ أَتَعَمّـلْ لِلسِّـيَادَةِ فِيهِـمُ وَلَكِنْ أَتَتْنِي طَائِعًـا غَـيْرَ مُتْعَـبِ

فهو رئيس ابن رئيس قبيلة، أتته السيادة عن أبيه طائعة لفضل فيه واستحقاق لها، دون أن يسعى للحصول عليها. ويعد اختيار سيد القبيلة مثالاً للحرية التي تمتع العربي بها حيث يختاره قومه بحرية تامة، فلا يكره أحد على اختيار السيد في القبيلة، وإنما يكون الرأي الحرُّ الذي تجتمع عليه القبيلة وترضى به.

فالسيادة عند العرب تتبع نظام الإرث في الغالب، إلا إذا حدث حادث يجعل أهل بيت السيادة يعرضون عن الابن الأكبر إلى غيره، كأن يكون الابن الأكبر معتوهًا أو سفيهًا أو ضعيفًا وإخوته أو أقرباؤه أقوى منه[٧١].

ومن أمثلة الحرية التي مارسها العربي حرية الانتماء، أو ماكانوا يسمونه الولاء، والولاء أنواع كثيرة منها مولى الحِلف، فيكون بانتماء رجل إلى رجل بعَقْد، أو قبيلة إلى قبيلة أخرى بحلف، وذلك بأن يتعاقد ضعيف مع قوي على أن يساعده ويعاضده، ويقوم في مقابل ذلك بأداء ما اتفق عليه من شروط، وينتسب المولى عندئذ إلى سيده أي مولاه الذي قبل ولاءه. وللعربي كامل الحرية في الولاء والحلف ولا يمكن منعه ممن يريد أن يحالف، وغير ولاء الحلف ولاء الرحم ويتم ذلك عن المصاهرة فإذا تزوج من قبيلة فقد ينتمي إليها ويصبح منها.

وكانوا يستولدون السبايا ولكن لا يلحق نسب الولد بأبيه إلا إذا ادعاه، ولذا كان من مفاخر الرجل أن أمه حرة نسيبة لا سبية. فإذا كانت أمه سبية افتخر بما

---

[٧٠] المرجع السابق: ص٩٦

[٧١] جواد علي، المفصل تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص١٩٨.

www.mtenback.com

يعوض نقصه، فقد كانت أم عنترة حبشية سوداء، فأكثر من الفخار بشجاعته، بدلاً من الفخار بأمه وأخواله مقابل الفخر بأبيه. فهو يقول[٧٢]:

إِنّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا ... شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصَلِ

وقال:

إِنْ كُنْتُ فِي عَدَدِ الْعَبِيدِ فَهِمّتِي ... فَوْقَ الثُّرَيَّا وَالسِّمَاكِ الأَعْزَلِ

أَوْ أَنْكَرَتْ فُرْسَانُ عَبْسٍ نِسْبَتِي ... فَسِنانُ رُمْحِي وَالْحُسَام يُقِرُّ لِي

وَبِذَابِلِي وَمُهَنّدِي نِلْتُ الْعُلاَ ... لاَ بِالْقَرَابَةِ وَالْعَدِيْدِ الأَجْزَلِ

وقد أكثر الشعراء من الدفاع عن سواد لونهم، ولكن لم يجرؤ أحدهم على أن يفضل نفسه على العرب. قال عنترة:

للهِ دَرُّ بَنِي عَبْسٍ لَقَدْ نَسَلُوا ... مِنَ الأَكَارِمِ مَا قَدْ تَنْسِلُ الْعَرَبُ

لَئِنْ يَعِيْبُوا سَوَادي فَهْوَ لِي نَسَبٌ ... يَوْمَ النِّزَالِ إِذَا مَا فَاتَنِي النَّسَبُ

وقال:

سَوادِي بَيَاضٌ حِيْنَ تَبْدُو شَمَائِلِي ... وفِعْلِي عَلَى الأَنْسَابِ يَزْهُو وَيَفْخَرُ

وقال:

وَإِنْ يَعِيْبُوا سَوَادًا قَدْ كُسِيْتُ بِهِ ... فَالدُّرُّ يَسْتُرُهُ ثَوْبٌ مِنَ الصَّدَفِ

وما زالوا بحاجة إلى دفاعهم عن سواد لونهم إلى ما بعد العصر الجاهلي، ومن طريف ذلك أن الشاعر الإسلامي نُصَيْبًا خطب جارية حمراء فرفضته، قائلة: إليك عني، فوالله لكأنك من طوارق الليل. فقال لها: فأنت والله لكأنك من طوارق النهار.

---

[٧٢] ديوان عنترة بن شداد، ص١١٩، المنصب: الأصل، المنصل: السيف.

www.mtenback.com

فقالت: ما أظرفك يا أسود! فغاظه قولها، فقال لها: هل تدرين ما الظرف؟، إنما الظرف العقل! فقالت له: انصرف حتى أنظر في أمرك. فأرسل إليها هذه الأبيات[٧٣]:

فَإِنْ أَكُ حَالِكًا فَالْمِسْكُ أَحْوَى ... وَمَا لِسَوادِ جِلْدِي مِنْ دَوَاءِ
وَلِي كَرَمٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ نَاءٍ ... كَبُعدِ الأَرْضِ مِنْ جَوِّ السَّماءِ
وَمِثْلِي فِي رِجَالِكُمُ قَلِيلٌ ... وَمِثْلُكِ لَيْسَ يُعْدَمُ فِي النِّسَاءِ
فَإِنْ تَرْضَيْ فَرِدِّي قَوْلَ رَاضٍ ... وَإِنْ تَأْبَيْ فَنَحْنُ عَلَى السَّواءِ

فلما قرأت الشعر قالت: المال والشعر يأتيان على غيرهما فتزوجته.

ويدل شعر سحيم عبد بني الحسحاس أنه كان أسود دميم الصورة تحفوه النساء، ويترفعن عن معاطاته الحديث، فكان في قرارة ذاته بائسًا محرومًا من نعمة المرأة الكريمة وعطفها وكان يحس أنه ليس موضع رغبة أبدًا، فيقول[٧٤]:

أَتَيْتُ نِسَاءَ الْحَارِثِيينَ غُدْوَةً ... بِوَجْهٍ بَرَاهُ اللهُ غَيْرِ جَمِيلِ
فَشَبَّهَنِي كَلْبًا وَلَسْتُ بِفَوْقِهِ ... وَلاَ دُونِهِ إِنْ كَانَ غَيْرَ قَلِيلِ

وكان حرمانه منبع ألم نفسي حاد، إذ يرى فتيان القبيلة يظفرون من الفتيات باللطف والوصال، فيشتهي مثل حالهم وهو عاجز معزول، فينطوي على ظمأ للمرأة وحرمان شديد.

ويزيد هذا الألم منزلته الاجتماعية المضطربة، فهو عبد مملوك والعبيد أمثاله ممن أوتوا رجولة وافرة وكرامة متيقظة وشعورًا مرهفًا، يعانون ضيقًا ثقيلاً لما تجره عليهم العبودية من المذلة، ولما تفوت عليهم من الحظوظ التي يظفر بها الأحرار، ومن هنا

---

[٧٣] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١، ص٣٣٣.

[٧٤] ديوان سحيم عبد بني الحسحاس: ص٦٩.

www.mtenback.com

كان منشأ حقد راسخ لا يزول عنهم. وقد أدرك بعضهم خبيئة سحيم وأمثاله، فأعرض عن شرائه خوفًا من أذاه، وليس بعيدًا أن أكثر مأساة سحيم مردها إلى شعوره بخسة قدره وهوانه على الناس وقد قال في وصف هذا الشعور[٧٥]:

أَشَارَتْ بِمَدراهـا وَقَالَتْ لِزِبْهَا ... أَعَبْدُ بَنِي الْحَسْحَاسِ يُزْجِي الْقَوَافِيَا

رَأَتْ قَتَبًا رثًّا وَسَحْقَ عَبَاءَةٍ ... وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ عَارِيَا

يُرَجِّلْنَ أَقْوَامًا وَيَتْرُكْنَ لِمَّتِي ... وَذَاكَ هَوَانٌ ظَاهِرٌ قَدْ بَدَ الِيَا

فَلَوْ كُنْتُ وَرْدًا لَوْنُه لَعَشِقْنَنِي ... وَلَكِنّ رَبِّي شَانَنِي بِسَوادِيَا

وقد باعه أصحابه مرة بعد صحبة وعشرة مديدة، فأحس سحيم أنهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سلعة بخسة من غير تقدير لأحاسيسه وقلبه، فقال[٧٦]:

أَشَوْقًا وَلَمَّا تَمْضِ لِي غَيْرُ لَيْلَةٍ ... فَكَيْفَ إِذَا سَارَ الْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا

أَخُوكُم وَمَوْلَى خَيْرِكُمْ وَحَلِيفُكُمْ ... وَمَنْ قَدْ ثَوَى فِيكُمْ وَعَاشَرَكُمْ دَهْرَا

وَمَا خِفْتُ سَلَّامًا عَلَى أَنْ يَبِيعَنِي ... بِشَيْءٍ وَلَوْ أَمْسَتْ أَنَامِلُهُ صِفْرَا

وهكذا فقد عاش سحيم حياة داخلية تجيش بالأسى والبؤس، وكانت شاعريته سلاحه الوحيد، فأخذ سبيل التشبيب الفاضح، يزعم فيه تمكنه من الشريفات، وهو لا يقول ذلك إلا تعويضًا عن فقده للحرية، واستحكام الرقّ في رقبته.

حرية المرأة:

تبوأت المرأة في الحياة العربية مكانة عالية لم تصل إليها غيرها في المجتمعات الأخرى. وتدل هذه المكانة على قيمة المرأة في المجتمع العربي. فقد شعرت بأنها

---

[٧٥] ديوان سحيم: ص ٢٥.

[٧٦] المصدر نفسه: ص ٥٦.

www.mtenback.com

مساوية للرجل في مكانته، و يجب أن ينظر إليها المجتمع نظرته للرجل، فقد أنشدت فتاة عضلها أبوها ومنعها الأكفاء[٧٧]:

أَيُزْجَرُ لاَ هِيْنا وَنُلْحَى عَلَى الصِّبَا وَمَا نَحْنُ وَالْفِتْيانُ إِلاّ شَقَائِقُ

وفي أمثال العرب: «النساء شقائق الأقوام»[٧٨].

وقد بلغ بهن شعورهن بمساواتهن للرجال في كثير من الحقوق أن عجب بعضهن من أن يُنْذِرَ القرآن الرجال ويغفل النساء، فيما يأمر وينهى أو فيما يعد ويوعد، أوهُنَّ وددن أن يشرفهن الله تعالى بالذكر كما يشرف الرجال، واحتججن على الرجال فقلن: أسلمنا كما أسلمتم، وفعلنا كما فعلتم، فتذكرون في القرآن ولا نذكر؟[٧٩].

روي أن أم سلمة أم المؤمنين قالت للنبي ﷺ يا رسول الله يذكر الرجال ولا نذكر. وروي أن نساءه قلن يا رسول الله: لماذا يذكر المؤمنون ولا يذكر المؤمنات[٨٠].

وقد أجاب القرآن دعواهنَّ إذ أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٨١].

---

[٧٧] أبو علي القالي: الأمالي، مطبعة دار الكتب القاهرة، (١٣٢٤هـ)، ج٢، ص١٠٥

[٧٨] الميداني: مجمع الأمثال، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، (١٣٢٤هـ) ج١، ص٢٦

[٧٩] ابن سعد: الطبقات الكبير، نشره: إدوارد شيخو، مطبعة بريل بليدن، (١٣٢١هـ)، ج٨، ص١٤٥.

[٨٠] المصدر السابق: ج٨، ص١٤٤.

[٨١] سورة الأحزاب: ٣٥.

www.mtenback.com

ومما يدل على مكانة المرأة في المجتمع العربي الجاهلي تلك الأسماء المؤنثة لكثير من القبائل العربية، نذكر منها على سبيل المثال: خِنْدف[٨٢] وجديلة[٨٣]. مزينة[٨٤] وعاملة، وعفراء، وغيرها كثير. ومع أن النسب انتقل إلى الأب فقد ظل عدد من الرجال ينتسبون إلى أمهاتهم ومن هؤلاء المنذر بن ماء السماء[٨٥]، وعمرو بن هند[٨٦]، وشرحبيل بن حَسَنة[٨٧]، ومعاذ بن عفراء[٨٨]، وغيرهم.

وقد حظيت المراة العربية عند زوجها بتقديره ورعايته وحبه مما يدل على علو مكانتها في نفسه، وأنه نظر إليها على أنها شريك في الحياة جدير بالرعاية والحب والإعزاز.

ومن دلائل حبه وتقديره أنه كان يشهدها على مفاخره، ومن ذلك قول عروة بن الورد في إشهاد زوجته على محامده[٨٩]:

وَقَدْ عَلِمَتْ سُلَيْمَى أَنَّ رَأْيِي ... وَرَأْيَ الْبُخْلِ مُخْتَلِفٌ شَتِيتُ

وَأَنِّي لاَ يُرِينِي الْبُخْلَ رَأْيٌ ... سَوَاءٌ إِنْ عَطِشْتُ وَإِنْ رَوِيتُ

---

[٨٢] خندف: هي ليلى بنت حلوان بن عمران زوج إلياس بن مضر بن نزار، عنها تفرّع أكثر بطون العرب ومن هؤلاء هذيل وكنانة وأسد.

[٨٣] جديلة: هي ابنة مدركة بن الياس، ومن بطونها العظيمة عدوان، وإليها ينسب ذو الإصبع العدواني خطيب العرب، وعامر بن الظرب حكيم العرب.

[٨٤] مزينة: نسبة إلى أمهم مزينة بنت كلب بن وثر.

[٨٥] هو المنذر بن امرىء القيس، ملك الحيرة، وابن مارية بنت عوف بن جُشم، وقد لقبت أمه بماء السماء لجمالها وحسنها.

[٨٦] عمرو بن هند: ملك الحيرة، وأمه: هند بنت عمرو بن حجر ملك كنده.

[٨٧] شرحبيل بن حسنة: قائد من كبار قادة الحرب في الإسلام، أسهم إسهامًا مشرّفًا في القضاء على المرتدين وفي حركة الفتوح الأولى، أمه (حسنة) كانت من المسلمات الأول ومن مهاجرات الحبشة وهي من بني زهرة.

[٨٨] أمه عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، وأبوه الحارث بن رفاعة، وكانت عفراء من المنجبات.

[٨٩] ديوان عروة بن الورد، بشرح ابن السكيت، طبعة بيروت، ص١١٠.

www.mtenback.com

وَأَنّـي حِيْـنَ تَشْـتَجُر الْعَوالِـي ... حَوَالِـي الُّلـبّ ذُو رَأْيٍ زَمِيْـتُ

ويقول أوس بن حجر:

أَلَـمْ تَعْلَمِـي أُمّ الْجِـلاَسِ بِأَننـا ... كِرَامٌ لَدَى وَقْعِ السُّيُوفِ الصَّـوَارِمِ

وَأَنَّـا لَنُعْطِـي الْحَـقَّ منّـا وَأَنَّنَـا ... لَنَأْخُذُهُ مِـنْ كُـلّ أَبْلَـجَ ظَـالِمِ

ويقول عنترة بن شداد[٩٠]:

يَا عَبْلُ كَمْ مِـنْ غُمْـرَةٍ باشـرتُها ... بِمُثَقَّـفٍ صُلْـبِ الْقَوَائِـمِ أَسْـمَرِ

وكان من سمات الرجولة أن يُحسن الرجل عشرة زوجته كقول ذي الإصبع العدواني إنه يلبي نداء جارته وكنتها ولا يفجع زوجته بشر[٩١]:

ثُـمَّ سَـلا جَـارَتِي وكِنَّتَهَـا ... هل كُنْـتُ فِيْمَـنْ أَرَابَ أَو فَرَعَـا

أَوْ دَعَتَـانِي فَلَـمْ أُجِـبْ وَلَقَـدْ ... تَـأْمَنُ مِنّـي حَلِيلَتِـي الفَجَعَـا

المرأة العربية وحرية الرأي:

من مظاهر الحرية التي حظيت بها المرأة العربية احترام رأيها واستماع مشورتها، في اختيار زوجها، فلم تكن في الغالب تقسر على زوج لا ترتضيه، أو تـزوّج بغـير مشورة، و لم يكن للآباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تحـد، إذ كان للولي أن يزوجها بغير استشارتها وكل عقد تبرمه بغير رضاه بـاطل[٩٢]. و لم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أو يزوجوهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود.

---

(٩٠) ديوان عنترة: ص ٥٦.

(٩١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، طبعة دار الكتـب، ج٣، ص٩٧. الكنة: امرأة الابن أو الأخ. أراب: فعل ما يريب. فرع: أفحش. الفجع: الأذى.

(٩٢) بيهم، محمد جميل: المرأة في التاريخ والشرائع، بيروت، (١٣٣٩هـ) ص٧٤.

www.mtenback.com

وفي سبيل ذلك أبت الخنساء بنت عمرو[٩٣] أن تساق إلى دريد بن الصّمة، وكان سيّد قومه، وآثرت بني عمها. ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها وكان صديق دريد وأخوها صخر غائب في غزوة قالت[٩٤]:

تُبَاكِرُنِي حُمَيْدَةُ كُلَّ يَوْمٍ ... بِمَا يُولِي مُعَاوِيَةَ بَنَ عَمْرو

فَإِلا أُعْطَ مِنْ نَفْسِي نَصِيبًا ... فَقَدْ أَوْدَى الزَّمَانُ إِذًا بِصَخْرِ

أَتُكْرِهُنِي ــ هُبِلْتَ ــ عَلَى دُرَيدٍ ... وَقَد أَحْرَمْتَ سَيِّدَ آلِ بَدْرِ

مَعَاذَ اللهِ يَنْكِحُنِي حَبَرْكَى ... قَصِيرُ الشِّبْرِ مِنْ جُشَمِ بْنِ بَكْرِ

وقالت هند لأبيها عتبة بن ربيعة: إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ. قال: لك ذلك. فقال لها ذات يوم: إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسميًا لك واحدًا منهما حتى أصفه لك، أما الأول، ففي الشرف الصميم والحسب الكريم، تخالين به هوجًا من غفلته، وذلك إسجاح من شيمته، حسن الصحابة، سريع الإجابة، إن تابعته تبعك، وإن ملتِ كان معك، تقضين عليه من ماله، وتكفين برأيك عن مشورته. وأما الآخر ففي الحسب الحسيب، والرأي الأريب، بدر أرومته، وعز عشيرته، يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن اتبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توعر عليهم، شديد الغيرة، سريع الطيرة، صعب حجاب القبة، إن حاج فغير منزور، وإن نوزع فغير مقهور، وقد بينت لك كليهما. فقالت: أما الأول فسيد مطاع لكريمته، موات لها فيما عسى أن تلين بعد إبائها، وتضيع تحت خبائها إن جاءته بولدٍ أحمقت وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، اطو ذكر هذا عني ولا تسمه لي. أما الآخر فبعل الحرة الكريمة، إني لأخلاق هذا لوامقة، وإني له لموافقة، وإني لآخذة بأدب البعل

---

[٩٣] هي: تماضر بنت عمرو بن الحارثة بن الشريد.

[٩٤] أبو علي القالي، الأمالي: ج٢، ص١٦١.

www.mtenback.com

مع لزومي قُبّتي وقلة تلفتي وإن السليل بيني وبينه لحريّ أن يكون المدافع عن حريم عشيرته، الذائد عن كتيبتها، الحامي عن حقيقتها، المثبت لأرومتها، غير مواكل ولا زميل عند صعصعة الحروب. قال: ذاك أبو سفيان بن حرب. قالت: فزوجه ولا تلق إلقاء السِّلس، لاتَسُمْه سوم الضرس ثم استخر الله في السماء يخرْ لك في القضاء[٩٥].

وقالوا: إن الحارث بن سليل الأسدي زار علقمة بن خصفة الطائي ــ وكانا حليفين ــ وكلاهما سيد قومه، فأبصر ابنته الزباء ــ وكانت كأجمل أهل دهرها ــ فخطبها إليه، فقال له علقمة: أنت كفء كريم، يُقبل منك الصفو، و يؤخذ منك العفو، فأقم ننظر في أمرك، وأبى أن يقطع القول له. ثم انكفأ إلى أمها، فقال لها: إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبًا ومنصبًا وبيتًا، وقد خطب إلينا الزبّاء، فلا ينصرفن إلا بحاجته فنهضت المرأة إلى ابنتها وأنشأت تؤامرها في أمر الحارث، وكان الحارث شيخًا لا شباب فيه، فقالت أول ما بدأتها، سألتها: أي الرجال أحب إليك: الكهل الجحجاح[٩٦] الواصل المنّاح، أم الفتى الوضّاح وهناك تجاذبا الحوار في أيهما أمثل بالفتاة و أولى لها. وكلّ يؤثر شكله ويضرب الأمثال في نفاذ قوله. على أن الأم كانت أدل بحجتها فنزلت ابنتها على رأيها، فهل رأيت مدى في الحرية أبعد من هذا؟

وشبيه ذلك ما حدثوا أن زيد الخيل (الخير)[٩٧]، وأوس بن حارثة وحاتم بن عبد الله الطائيين نزعوا إلى ماوية ابنة عفزر إحدى ملكات الحيرة يخطبونها، فقالت ليصف كل إنسان منكم نفسه، فقال زيد: أنا زيد الخيل تفخر بي طيِّئ على العرب لي في كل

---

[٩٥] عمر رضا كحالة: أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، ج٤، ص٢٤١.

[٩٦] الجحجاح: السيد.

[٩٧] زيد الخيل: بطل من أبطال العرب وسيد من سادات طيء، لقي رسول الله ﷺ وعلى يديه أسلم، وقال فيه ﷺ ما وصف لي أحد من العرب إلا رأيته دون ما وصف لي، إلا زيد الخيل، فقد رأيته فوق ما وصف لي، وسماه رسول الله زيد الخير.

www.mtenback.com

مرباع غنيمة[٩٨]، غزوت ثلاثا وسبعين غزاة لم تثكل طائية فيها ولداً و لم تفجع منها بحليل (زوج) و لم أخب في شيء منها، ثم إني لم أرد سائلاً و لم ألاح جاهلاً، و لم أنطق باطلاً، و لم أبت على وغم[٩٩]. فقال أوس: أول ما أخذت من لحيتي قامت سُعدى فالتقطت كل شعرة سقطت منها فأعتقت بها نسمة من معد. فقال حاتم: أنهيت مالي ثلاث عشرة مرة، وأحلت لي طيئ أموالها، آخذ ما شئت وأدع ما شئت. قالت: هاتوا بذلك شعراً فتنازعوا ذلك القولَ شعراً وكان من قول حاتم:

أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ ... وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الأَحَادِيْثُ والذِّكْرُ

فلما انتهوا قالت: إن حاتماً أكرمكم وأشعركم ثم رضيته زوجاً لها على أن يخلي سبيل امرأته، فأبى، فلما ماتت امرأته تزوجته ماوية، وولدت له عَدِيّاً[١٠٠].

وربما اختارت المرأة لنفسها وهي في الشرف الصميم والمجد القديم من قومها، فلا لوم ولا نكير، وما كانت تخطب منه إلا صفو الخلق وكريم الضريبة. وإن اختيار خديجة بنت خويلد للرسول الكريم ﷺ زوجاً لها، لما رأته من طيب خلقه وجمال خصاله وأمانة عمله، لبرهان على أن المرأة السيدة قد تنتقي زوجها بنفسها، فقد خطبته لنفسها وكانت أكرم زوجاته عليه، وأبقاهن أثراً عنده، وأسناهن ذكراً في الحياة.

وقد حدثوا أن بني كنانة توقعوا غارة يفجؤهم بها بعض الضاربين حولها من القبائل، فخرجت إحدى كرائم الحي وجلست بين صواحب لها، ثم دعت وليدة من ولائدها وقالت: ادعي فلاناً، فدعت لها رجلاً من الحي، فقالت: إن نفسي تحدثني أن خيلاً تغير على الحي فكيف أنت إن زوجتك نفسي؟ قال أفعل وأفعل، وجعل يطنب في وصف نفسه ويفيض، فقالت له: انصرف حتى أرى رأيي. وأقبلت على صواحبها

---

[٩٨] المرباع: ربع الغنيمة الذي كان يتقاضاه الرئيس في الجاهلية: يريد أن له على كل رئيس سلطاناً.

[٩٩] الوغم: الثأر أو الحقد.

[١٠٠] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٦ ص ٩٩.

www.mtenback.com

فقالت: ليس عنده غناءٌ. ادعي لي فلانًا فدعت آخر. فخاطبته بمثل ما خاطبت صاحبه وأجابها بمثل جوابه، فصرفته. ثم قالت لوليدة: ادعي لي ربيعة بن مُكدّم، فقالت له مثل قولها للرجلين قبله: فقال لها: إن أعجز العجز أن يصف الرجل نفسه، ولكني إن لقيت أعذرت[١٠١] وحسب المرء غَناءً أن يُعذر. فقالت له: قد زوجتك نفسي، فاحضر غدًا مجلس الحي ليعلموا ذلك. فلما كان الغد تزوجها، وخرج من عندها ودافع الخيل ورد كيد المعتدين[١٠٢].

وكذلك فعلت الرباب من بني ذُهل ثم من بني سَدُوس، فقد خطبها خداش بن حابس التميمي بعد ما هام بها زمنًا وكان أبواها يتمنعان لجمالها ويردان خداشًا، فأضرب عنها زمنًا، ثم أقبل ذات ليلة راكبًا فانتهى إلى محلتهم وهو يتغنى بقوله:

أَلاَ لَيْتَ شِعْري يَا رَبَابُ مَتَى أَرَى ... لَنَا مِنْكِ نُجْحًا أَو شِفَاءً فَأَشْتَفِي

فَقَدْ طَالَمَا عَنَّيْتِنِي وَرَدَدْتِنِي ... وَأَنْتِ صَفِيٌّ دُونَ مَنْ كُنْتُ أَصْطَفِي

لَحَى اللهُ مَنْ تَسْمُو إِلَى الْمَالِ نَفْسُهُ ... إِذَا كَانَ ذَا فَضْلٍ بِهِ لَيْسَ يَكْتَفِي

فَيُنْكِحُ ذَا مَالٍ دَمِيمًا مُلَوَّمًا ... وَيَتْرُكُ حُرًّا مِثْلَهُ لَيْسَ يَصْطَفِي

فعرفت الرباب منطقه وجعلت تتسمع إليه، وأرسلت إلى الركب الذين منهم خداش أن انزلوا بنا الليلة، فنزلوا، وبعثت إلى خداش أن قد عرفت حاجتك، فاغدُ إلى أبي خاطبًا، ورجعت أمها فقالت: هل أتزوج إلا من أهوى؟ قالت: لا، فما ذاك؟ قالت: زوجيني خداشًا. قالت أمها: وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله؟ قالت: إذا جمع المالَ السيئُ الفعال فقبحًا للمال، فأخبرت الأم أباها فرضي[١٠٣].

---

[١٠١] أعذرت: أصبتُ العذر.

[١٠٢] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٥، ص١٣٢

[١٠٣] الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص٤٤٠.

www.mtenback.com

جاء الإسلام فعضد حق المرأة في رضاها بزوجها لقول النبي ﷺ: لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت[١٠٤].

وجعل للكبيرة التي أكرهت على الزواج أن تفسخه، فقد كانت خنساء بنت خذام الأنصاري تحت أنيس بن قتادة فقتل عنها يوم أحد، فأنكحها أبوها رجلاً وهي كارهة له، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبي تفوّت علي فزوجني، ولم يشعرني. قال: لا نكاح له انكحي من شئت فرد نكاحه وتزوجت غيره[١٠٥].

واشترت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بريرة وأعتقتها وكان زوجها مغيث مولى، فخيرها رسول الله فاختارت فراقه وكان يحبها ويمشي في طرق المدينة يبكي، واستشفع إليها بالرسول فقال لها فيه: فقالت أتأمر: قال:بل أشفع، قالت: فلا أريده[١٠٦].

وكثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن. فهذه أم هاني بنت أبي طالب وقد خطبها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من سمعي ومن بصري، وإني امرأة مؤتمة، وبنيّ صغار وحق الزوج عظيم. فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي. فقال رسول الله ﷺ: إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناهنّ على ولد في صغره، وأرعاهنّ على بعل في ذات يده[١٠٧].

---

[١٠٤] أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان، القاهرة، ط١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج٩، ص١٦٤.

[١٠٥] المصدر السابق: ج٣، ص٢٣٣.

[١٠٦] ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، المطبعة الوهبية، القاهرة، (١٢٨٠هـ) ج٥، ص ٤٤.

[١٠٧] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٧، ص٣٢.

www.mtenback.com

تلك امرأة أبدت صفحة العذر عن بلوغ أقدس منزلة تبلغها المرأة المسلمة وهي منزلة أمومة المؤمنين، فأكبر رسول الله ﷺ رأيها إكبارًا قلدّ نساء قريش بأسرها تلك الشهادة العالية.

وتلك أم كلثوم بنت أبي بكر رفضت أن تتزوج عمر بن الخطاب فقالت لها عائشة أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إنه خشن العيش شديد على النساء[١٠٨].

وقد بالغت المرأة العربية باستعمال الحرية حتى طالبت أن تكون العصمة بيدها فتطلق الرجل، وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق سواء أكان على بذل أم لم يكن. وهذا حق لم تظفر به امرأة في الأمم التي عاصرت العرب. فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجل في الجاهلية، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حولن الخباء، فإن كان بابه قبل المشرق حولته قبل المغرب، وإن كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلم يأتها[١٠٩]. أمّا الحضريات فكانت لهن طريقة أخرى في الإعلام بالتطليق ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعامه إذا أصبح[١١٠].

ومن هؤلاء اللاتي امتزن بحق التطليق سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية، وهي أم عبد المطلب بن هاشم، إحدى نساء بني عدي بن النجار كانت لا تتزوج إلا وأمرها بيدها، فإذا كرهت شيئًا تركته[١١١]، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجلية، ومارية بنت الجعد، وعاتكة بنت هلال بن فالج السلمية، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية، والسوداء العنزية الهزّانية[١١٢]. ومنهن ماوية بنت عفزر وقد طلقت زوجها حاتمًا الطائي لما خرق في كرمه وضاقت به[١١٣].

---

[١٠٨] ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ج٣، ص٢٧٥.
[١٠٩] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٦، ص١٠٢.
[١١٠] الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص ٣١٨.
[١١١] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٣، ص١١٩.
[١١٢] الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص٣١٨.
[١١٣] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٦، ص ٩٩.

www.mtenback.com

وكان للمرأة الحق بالاختلاع. وهو صورة من صور الطلاق في الجاهلية، وهو أن تفتدي المرأة من زوجها بمالها وتختلع منه إذا أساء عشرتها[١١٤]. ومن ذلك أن عامر بن الظرب زوَّج ابنته ابن أخيه وبعد أشهر جاءته مشجوجة فقال لابن أخيه: «يا بني ارفع عن بكرتك فإن كانت نفرت من غير أن تنفر فذاك الداء الذي ليس له دواء وإن لم يكن بينكما وفاق، ففراق الخلع أحسن من الطلاق، ولن تترك مالك وأهلك، ورد عليه صداقها وخلعها»[١١٥]. إن الحرية الشخصية قد استوى بطلبها الرجل والمرأة واتسعت دائرة استعمالها عند العرب في جاهليتهم وفي الإسلام.

ولما جاء الإسلام أقر الخلع، مراعاة لصالح المرأة لأنها قد تبغض زوجها وتتأذى بعشرته، ويأبى هو أن يخلصها، حرصًا عليها أو نكاية لها، أو أسفًا على ما أنفقه من ماله في زواجها. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[١١٦].

على أن الإسلام حذر الزوجة أن تختلع أو تطلب الطلاق من غير حاجة، أو خضوعًا للهوى لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ والمراد النشوز والبغضة من الزوجة والتقصير في الحقوق من الزوج، ولقوله ﷺ: «أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[١١٧].

وللمرأة أن تطلق بغير اختلاع كما حدث عبيد بن الأبرص عن زوجته[١١٨]:

---

[١١٤] ابن قتيبة: عيون الأخبار، طبعة دار الكتب، القاهرة، ج٤، ص٧٦.

[١١٥] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج٤، ص٧٦.

[١١٦] سورة البقرة: ٢٢٩.

[١١٧] البيهقي: السنن الكبرى، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، (١٣٥٥هـ)، ج٧، ص٣١٦.

[١١٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص ١١٩.

www.mtenback.com

تِلْكَ عِرْسِي غَضْبَـــى تُرِيْـــدُ زِيـــالِي أَلَبَيْـــنٍ تُرِيْـــدُ أَمْ لِـــــــدِلاَلِ
إِنْ يَكُنْ طِبُّكِ الْفِرَاقُ فَـــلاَ أَحْـــ ـــفَلُ أَنْ تُعْطِـــي صُـــدُورَ الْجِمَـــالِ

على أن المرأة العربية كانت لبقة في تصرفها بعصمتها، لا تطلق زوجها حماقـــة وهوى، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية، لا تفصمه إلا إذا لم تجد بدًا من فصمه، فهؤلاء اللاتي كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها. يدل على ذلك أن رجلاً مـــن آل أبي طالب غضب على امرأته يومًا فقال لها: أمرك بيدك. فقالت: أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة، فحفظته وأحسنت صحبته، فلا أضعه في يدي ساعة من نهار، وقـــد رددت عليك حَقَّك، فأعجبه قولها وأحسن صحبتها[١١٩].

أكبر حرية تمتعت بها المرأةهي حرية الملك واكتساب المال. وقد كانت المـــرأة العربية تملك غير نفسها وقرارها في حرية اختيار شريك حياتها، تملك حرية التصـــرف في مالها وتستقل به دون ضير من الرجال. والأخبار التي تثبت ملكية النساء مستفيضة. يقول حاتم الطائي لامرأته وقد لامته على البذل[١٢٠]:

تَلُومُ عَلَى إِعْطَـــائِيَ الْمَـــالَ ضِلَّـــةً إذا ضَنّ بِالْمَـــالِ الْبَخِيْـــلُ وَصَـــرَّدا
تَقُولُ أَلاَ أَمْسَـــكْ عَلَيْـــكَ فَـــإِنَّنِي أَرَى الْمَالَ عِنْدَ الْمُمْسِـــكِيْنَ مُعَبَّـــدا
ذَرِيـــنِي وَمَـــالِي إِنَّ مَـــالَكِ وَافِـــرٌ وَكُلُّ امْرِىءٍ جَارٍ عَلَى مَـــا تَعَـــوَّدا

فمالها غير مال زوجها وهو وافر كثير.

وقد كانت أم حاتم غنية بنت عفيف كريمة، لا يسألها أحد شـــيئًا إلا أعطتـــه، وكانت ذات يسار، ولا تمسك شيئًا فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها، ومنعوهـــا

---

[١١٩] ابن طيفور: بلاغات النساء، ص ١٣٢.

[١٢٠] ديوان حاتم الطائي، ص٨.

www.mtenback.com

مالها، ثم دفعوا إليها صرمة من إبلها[١٢١] فهي مثرية ذات مال خاص بها، وإخوتها يرون سفهًا في بذلها فيحجرون عليها، ثم بعد حين يردّون عليها قطيعًا من إبلها.

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها صاحبة مال وتجارة، وكانت تستأجر رجالاً من قريش ليتاجروا لها، وقد تاجر لها النبي ﷺ في اليمن والشام، وتقاضى منها أجره أربع بكرات أو قلوصين[١٢٢]. وفي حديث السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها للرسول قولها: يا رسول الله: «مالي مال إلا ما أدخل عليّ الزبير فأتصدق؟ قال:تصدقي ولا تُوعي فيوعَى عليك»[١٢٣] ومعنى ذلك أن لغيرها من النساء مالاً يتصدقن منه، أو أنها مظنة أن يكون لها مالٌ كغيرها تتصدق منه.

وأسماء بنت مخرّمة. أم عبد الله بن أبي ربيعة. كانت تتاجر في العطور بالمدينة وكانت تجلبها من اليمن[١٢٤]. ومليكة والدة السائب بن الأقرع كانت تبيع العطر في زمن النبي ﷺ [١٢٥]. وكانت مَنْشِم عطّارة يغمسون أيديهم في طيبها ويتحالفون عليه أن يستميتوا في الحرب، وكانت تبيع الحنوط أيضًا، سموا حنوطها عطرًا، لأنهم أرادوا به طيب الموتى[١٢٦]. وقد حدثت قيْلة أم بني أنمار أنها جاءت النبي ﷺ وهو في المروة في إحدى عُمَرتيه فقالت: يا رسول الله إني امرأة أبيع وأشتري، فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطي بها أقلّ مما أريد أن آخذ به، ثم زدت حتى آخذها بالذي أريد أن

---

[١٢١] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٦، ص٩٣.

[١٢٢] علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، المطبعة الأزهرية المصرية، (١٣٢٩هـ)، ص١٤٧-١٥٢.

[١٢٣] محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري بشرح الكرماني، المطبعة المصرية، (١٣٥٦هـ/١٩٢٧م)، ج١١، ص١٢٦. لا توعي: لا تبخلي.

[١٢٤] ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، المطبعة الشرقية، مصر، (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م)، ج٨، ص١٠

[١٢٥] المرجع السابق، ج ٨، ص١٩١.

[١٢٦] المرجع السابق: ج٨، ص١٩١؛ الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص٣٤٨

www.mtenback.com

آخذها به، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستُمْتُ بها أكثر مما أريد أن أبيعها بـــه، ثـــم نقصت ثم نقصت حتى أبيعها بالذي أريد أن أبيعها به. فقال لها الرسول: «لا تفعلـــي هكذا ياقيلة، ولكن إذا أردت أن تشتري شيئًا فأعطي به الذي تريدين أن تأخذيه بـــه أعطيت أو منعت، وإذا أردت أن تبيعي شيئًا فاستامي الذي تريديـــن أن تبيعيـــه بـــه أعطيت أو منعت»[١٢٧]. هذه حرية المرأة بنفسها وبمالها وهذه مشاركتها الاجتماعيـــة وحياتها العامة والخاصة.

المرأة العربية في السياسة والحكم:

كان للمرأة العربية دور في سياسة الدولة أوبسط نفوذها في إدارتها. وقد ولّـــى العرب عليهم نساء، وكانوا يستطيعون ألاّ يولوهن لو أنهم رأوا في توليتهن غضاضة أو مجافاة للعرف الذي درجوا عليه ولا تكون ولاية المرأة لولا ماتمتع به العرب من التعبـــير الحرّ عن الرغبات حتى السياسية. وشواهد ذلك كثيرة. فقد حكمت بلقيس ملكـــة سبأ[١٢٨]، فكانت ملكة جليلة ذات عقل راجح ورأي صائب خلدت في التاريخ صفحات زاهية تحدث عن حياتها وأعمالها العظيمة التي قامت بها خلال حكمها، فـــتركت أثـــرًا حميدًا في الحضارة والعمران.

ومن الأعمال العمرانية التي قامت بها بلقيس ورفعت مجدها إلى أبعد صيـــت، ترميمها سد مأرب الذي كان الزمان قد أضرّه وخلخل أوصاله. وبلقيس هي صاحبـــة الصرح الذي ذكره الله في القرآن الكريم في قصة سليمان عليه السلام. وكان لبلقيـــس

---

[١٢٧] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢٢٨.

[١٢٨] اختلف في اسم أبيها: فهي ابنة اليشرح أو إيلي شرح أو ذى شرح بن ذي جدن القحطاني،أو هـــي ابنة أنيشرح بن الحارث، أو بنت الهدهاد واسمه أنيشرح بن تبع، وقيل غير ذلك. أو هي بنت آل شرح ابن ذي جدن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر، أو هي بنت الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بـــن مـــالك الرائش، وكان يلقب بذي شرح. ويقال إن اسمها بلقمة بلغة حمير ومعناها الزهرة، ثم سمتها العرب بلقيس.

www.mtenback.com

حرس من الرجال وبطانة من النساء، وكان لديها ثلاثمائة وستون امرأة من بنات أشراف حمير.

أما خبر بلقيس مع سليمان فقد قصه القرآن الكريم في سورة النمل في قول الهدهد لسليمان ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[١٢٩] ثم أرسل إليها سليمان كتابًا فلما أخذته جمعت مستشاريها، ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[١٣٠].

ومن خبر القرآن الكريم يظهر أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس، وأنها كانت تستشير ذوي الرأي ولا تستبد، و أن ملكها كان قويًا أو أن أعوانها كانوا يتوهمون هذه القوة، لأنهم أرادوا أن تحارب سليمان عليه السلام ولا تخضع له، لكنها كانت بعيدة النظر حصيفة الرأي، فجنبت قومها حربًا، وبعثت لسليمان بهدية لتختبره: أهو راغب في المال أم داعٍ إلى دين؟

ومن ملكات العرب قبل الإسلام: الزبّاء بنت عمرو، وكانت ملكة ذات عقل ورأي ودهاء وحكمة وحزم وشدّة وبأس مع جمال بارع وحسن باهر، فكانت سيرتها

---

[١٢٩] سورة النمل: ٢٣-٢٤.

[١٣٠] سورة النمل: ٢٩-٣٥.

www.mtenback.com

أشبه بسير الأبطال من الرجال، كانت فارسة اتسمت بالشجاعة والسطوة. وكانت إذا جلست في قومها لبست أفخر ما يلبس، ووضعت التاج على رأسها، وكانت تستعرض جنودها في الميدان، وقد استوت على صهوة جوادها، وارتدت لباس الحرب، وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدرّ والجوهر، وقد عرّت إحدى ذراعيها كما كان يفعل اليونان القدماء، وكانت تحدث مستشاريها وكثيراً ما بهرتهم بقوة برهانها وفصاحة رأيها وذلاقة لسانها، وكثيراً ما ضمّ مجلسها رجالاً من أمم شتى، كوفود ملك الفرس والأرمن[١٣١]. وقد مَلكت الشام والجزيرة العراقية في القرن الثالث بعد الميلاد (٢٦-٢٧٢م) بعد مقتل أبيها عمرو بن ظرف.

وقد ملكت نساء غيرها في اليمن وكنده وبلاد الأنباط، حتى لنجد في ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات، كما نجد في كندة خمس ملكات أيضًا، منهن العمردة بنت الأعشى، وكانت أعظم تأثيراً من إخوتها في الناس وأعمق نفوذًا لبلاغتها وذكائها وبراعتها في تدبير شؤون الحكم[١٣٢].

وفي دولة المناذرة (اللخميين) برز اسمان كبيران هما: هند زوجة المنذر بن امرئ القيس، المعروف بابن ماء السماء، وقد كانت - على إحدى الروايات - أميرة غسانية دانت بالنصرانية، وحملت إلى الحيرة فربت ابنها عمرو بن هند عليها.

والأخرى: حُرقة ابنة النعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس، وهي التي اشتهرت في التاريخ بطلب كسرى يدها من أبيها للزواج منها فرفض النعمان، فأثار الرفض نفس ملك الفرس (كسرى أبرويز) فغضب على النعمان وسجنه ويقال إنه توفي في معتقله، وكان من نتائج قتله معركة (ذي قار)[١٣٣].

---

[١٣١] انظر: جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص٨٧.

[١٣٢] صلاح البكري: تاريخ حضرموت السياسي المطبعة السلفية بمصر، (١٣٥٤هـ)، ص٧٤.

[١٣٣] ليلى صباغ: المرأة في التاريخ العربي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (١٩٧٥م)، ص٣١٨.

www.mtenback.com

وفي دولة الغساسنة يبرز اسم جدتهم الكبرى (مارية) التي ينسبون إليها والتي وردت في بيت شعر حسان بن ثابت الشهير[١٣٤]:

أَوْلاَدُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيْهِمُ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيْمِ الْمُفْضِلِ

وقد عرفت مارية كذلك بأنها أول امرأة تقرطت، ولذا لقبت بذات القرطين، وكان قرطاها نفيسي القيمة، مما يدل على مكانتها عند زوجها الملك، وقد وصفهما العرب بأنهما يحويان درتين كبيض الحمام وأن ثمنهما يقدر بأربعين ألف دينار[١٣٥].

والمرأة الغسانية الثانية التي اشتهر أمرها في بعض العلاقات السياسة هي حليمة ابنة الحارث بن جبلة، التي كان الروم قد عينوها ملكة على عرب الشام، وأوكلوا إليها أمر صيانة حدود الإمبراطورية البيزنطية من تحرشات الفرس واعتداءاتهم ومن غزوات عرب اللخميين الموالين للفرس. وكان بين المناذرة والغساسنة يوم معروف باسم يوم حليمة نسبة إلى حليمة بنت الحارث، التي نذر أبوها أن يزوجها لمن يقتل المنذر في المعركة، وأمر حليمة أن تطوف بالفرسان وتضمخهم بالمسك حتى يزدادوا شجاعة وإقدامًا. كما أنها كانت تلبسهم الأكفان، والدروع. وبالفعل استعر القتال بين المنذر والحارث وانتهى بمقتل المنذر على يد لبيد بن عمرو الغساني الذي فاز بيد حليمة[١٣٦].

عرضنا نماذج كثيرة من تاريخنا وتراثنا تدل على الحرية التي تمتع بها العرب، والدور الذي تقوم به المرأة مع الرجل وحرية الرأي والموقف، واتخاذ القرار دون خضوع أو خنوع أو استخذاء، وإنما كانت المرأة العربية حرة وكريمة وفاعلة في المجتمع مؤدية وظيفتها الصحيحة مشاركة الرجل في شؤون الحياة كلها.

---

[١٣٤] ديوان حسان بن ثابت، ص١٧٩.

[١٣٥] الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص١٧٤

[١٣٦] ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبّر، رواية أبي سعيد السّكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص١٣٠.

www.mtenback.com

حق المرأة في الجوار:

كان من حق الرجل أن يجير فلا يعتدي أحد على من أجاره، وإن اعتدى عليه أحد ذَبَّ جاره عنه، وحارب المعتدي وإن كان قريبه أو حليفه في قومه.

ولقد علت المرأة في الجاهلية إلى هذه المكانة فأجارت وقُبل جوارها، وحَمَتْ وصين حماها.

فقد أجارت فكيهة بنت قتادة – خالة طرفة بن العبد ــ السُّليك بن السُّلكة، وحمته من بكر بن وائل، ومدحها السليك في قوله[١٣٧]:

لَعَمْرُ أَبِيكِ وَالأَنْبَاءُ تَنْمَى ... لَنِعْمَ الجَارُ أَخْتُ بَنِي عُوَارا

فَمَا عَجزَتْ فُكَيْهَةَ يَومَ قَامَتْ ... لِنَصْلِ السَّيْفِ وَانْتَزَعُوا الْخِمَارا

مِنَ الْخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَبَاهَا ... وَلَمْ تَرْفَعْ لإِخْوَتِهَا شَنَارَا

وحمت ريطة بنت جذل الطّعان دريد بن الصّمة، اعترافًا بفضله، لأنه كان قد أعطى رمحه ربيعة بن مُكدّم يوم حمى الظعينة وألقت عليه ثوبها، وقالت: يا آل فراس أنا جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي. فحبسه القوم وقالوا: لا ينبغي أن نكفر نعمته.

وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلابرضا المخارق الذي أسره فانبعثت ريطة في الليل تقول:

سَنَجْزِي دُرَيْدًا عَنْ رَبِيْعَةَ نِعْمَةً ... وَكُلُّ فَتَى يُجْزَى بِمَا كَانَ قَدَّمَا

سَنَجْزِيْهِ نُعْمَى لَمْ تَكُنْ بِصَغِيْرَةٍ ... بِإِعْطَائِهِ الرُّمْحَ السَّدِيْدَ الْمُقَوَّمَا

فَلَوْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَضِقْ بِثَوَابِهِ ... ذِرَاعًا، غَنِيًّا كَانَ أَوْ كَانَ مُعْدَمَا

---

[١٣٧] أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، ص٤٣٣.

www.mtenback.com

فَفُكُّوا دُرَيْدًا مِـــنَ إِسَـــارِ مُخَـــارِقٍ وَلاَ تَجْعَلُوا الْبُؤْسَى إِلَى الشَّرِّ سُـــلَّما

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه، وكسته ريطة وجهزته، ولحق بقومه، فلم يزل كافًّا عن غزو بني فراس حتى هلك[١٣٨].

ثم جاء الإسلام فأبقى للمرأة هذا الحق، فقد أسلمت يوم الفتح أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل ابن عمهـــا، واســتأمنت النـــبي ﷺ لزوجها، وخرجت في أثره وقد فرّ إلى اليمن، فردته فأسلم، وثبتا على زواجهما[١٣٩].

وأجارت أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً كان أخوهـــا يريد أن يقتله يوم الفتح، وأخبرت النبي بذلك، فقال لها: «قد أجرنا من أجرت»[١٤٠].

الحرية والأسر:

وحيث إن أهم ما يملك العربي هو الحرية ويعد فقدانها والحرمان منهـــا موتًـــا بطيئًا، فقد جعل العرب حرمان أعدائهم من حريتهم ضربًا من المغرم الـــذي لا يقبلـــه العربي الكريم، وقد كان جزاء أعدائهم إذا وقعـــوا في أيديهـــم مصـــادرة حريتهـــم فيأسرونهم ويحرمونهم الحرية، وعن هذا الأسر قامت أدبيات كثيرة في عادات العـــرب وتقاليدهم، وكان أهمها البحث عن سبيل يحفظ للعربي الأسير كرامته وحريته، وأشهر ما عُرف من ذلك فداء الأسير وفك حريته، ولهم في ذلك مواقف كثيرة تعد مثالاً لمـــا يطلب العربي من معاني الحرية. وكان الفداء بالمال لاستعادة الحرية هو المعروف ليطلق الأسير أو يستعين أهل الأسير برد حريته بمن يستطيع مساعدتهم. وقد أسر رجل مـــن هوازن فذهب أخوه مستشفعًا له، فلم يفلح، فذهب إلى عكاظ ينشد شعرًا لعله يطلقه

---

[١٣٨] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني: ج١٤، ص١٣٠

[١٣٩] ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيـــدر آبـــاد، (١٣١٨هـــ)، ج٢، ص٧٩٠.

[١٤٠] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٦/ ١٩٦.

www.mtenback.com

فأخفق، ثم ذهب إلى أحد وجوه القوم فقال له: اشتر أخاك وعليّ الثمن، ولا يمنعك غلاؤه، ثم أحاله على آخر. فقال له: فإن وهب لي أخاك شكرته، وإلا أغرت عليه حتى يتقيني بأخيك، فإن نلتها وإلا دفعت إليه كل أسير من بني تميم فاشتريت أخاك[١٤١]. وهذا الشراء هو المفاداة، من ذلك أن بني عامر لما أسرهم زيد الخيل وطال عليهم الأسر قالوا: يازيد فادنا[١٤٢].

وقد أسرت بنو شبيان الشنفرى الأزدي، ولم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلاً منهم ففدته بنو شيبان بالشنفرى[١٤٣].

وقيل: إن الأشعث بن قيس الكندي غزا مذحجًا فأسر ففدى نفسه بألفي بعير وألف من الهدايا والطرف، قال الشاعر[١٤٤]:

فَكَانَ فِدَاؤُهُ أَلْفَيْ بَعِيْرٍ ... وَأَلْفًا مِنَ طَرِيْفَاتٍ وَتَلْدِ

ودفع هوذة بن علي الحنفي ثلاثمائة بعير فداءً لنفسه لما أسره بنو سعد. وفي ذلك يقول شاعر بني سعد[١٤٥]:

وَمِنّا رَئِيْسُ الْقَوْمِ لَيْلَةَ أَدْلَجُوا ... بِهَوْذَةَ مَقْرونُ الْيَدَيْنِ إِلَى النَّحْرِ

وَرَدْنَا بِهِ نَخْلَ الْيَمَامَةِ عَانِيًا ... عَلَيْهِ وَثَاقُ الْقَدِّ وَالحِلَقِ السُّمْرِ

---

[١٤١] محمد الخضري بك: مهذب الأغاني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٢، ص١٦.

[١٤٢] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٦، ص٥٤.

[١٤٣] المصدر نفسه، ج٢١ ص٨٧.

[١٤٤] الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد أحمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال.المطبعة البهية المصرية، ج٢ ص١١.

[١٤٥] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج١٦، ص٧٦.

www.mtenback.com

الزواج بالسبايا:

وأحيانًا كان العرب يستولدون السبايا، وبعضهم كان يعتقهن ويتخذهن زوجات، ولكن السبايا ما كن لينسين قومهن، فهن وإن طال العهد بهن يحتلن للرجوع للحرية التي فقدنها بالسبي، لأن العربية حرّة أبية لا تحتمل السباء ولا طاقة لها بتعيير النساء لها. فقد أصاب عروة بن الورد امرأة من بني هلال اسمها ليلى بنت شعواء، فمكثت عنده زمانًا تظهر له إعجابا به وحبًا له. ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع، وتوعده قومها بالقتل، وندم على أنه سكر وأجابهم إلى ما طلبوا، وتحسر على زوجته في قصيدة طويلة[١٤٦].

وقد تقتل السبية الحرة نفسها حتى لا يستذلها الإسار، كما فعلت فاطمة بنت الخرشب أم الربيع بن زياد، ذلك أن حمل بن بدر أغار على بني عبس فظفر بفاطمة راكبة على جمل لها، فقادها بجملها، فقالت: أي رجل ضل حلمك؟ والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك وراءنا لا يكون بينك وبين بني زياد صلح أبدًا، لأن الناس يقولون في هذه الحالة ما شاؤوه، وحسبك من شر سماعه، قال: إني ذاهب بك حتى ترعي عليّ إبلي. فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت نفسها على رأسها من البعير فماتت خوفًا من أن يلحق بنيها عار الأسر وحرمان الحرية التي دونها الموت كما يقولون[١٤٧].

وكانوا يتزوجونهن كما أسلفنا، وكثيرٌ من سادتهم أبناء سبايا، مثل دريد بن الصمة، فأمه ريحانة بنت معد يكرب، أسرها الصمة بن عبد الله، ثم تزوجها فأنجبت دريدًا وإخوته، وهي التي يقول أخوها عمرو في حديث إسارها[١٤٨]:

---

[١٤٦] ابن قتيبة الدَينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٥م)، ص٢٦٠.

[١٤٧] أبو الفرج الأصفهاني، في الأغاني: ٢١/١٦

[١٤٨] المرجع السابق: ج٩، ص٢.

www.mtenback.com

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ
سَبَاها الصمَّةُ الْجُشَمِيُّ غَصْبًا ... كَأَنَّ بَيَاضَ غُرتِهَا صَدِيْعُ[149]
وَحَالَتْ دُوْنَهَا فُرْسَانُ قَيْسٍ ... تُكَشفُ عَنْ سَوَاعِدِهَا الدُّرُوعُ
إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيْعُ

وبعد الإسلام بدأ الأسير يتمتع بمزايا جديدة، إذ أوجب النبي ﷺ لأول مرة في تاريخ الأسر، في جزيرة العرب على الأقل، أن تقدر إنسانية الأسير وأن تصان نفسه وكرامته عن الامتهان والازدراء. فصار يحاط ويمنع ويبذل له الطعام والمأوى مثل ما يجد المسلمون لأنفسهم ويأخذون و لم يأذن الرسول ﷺ أن ينال الأسير شيء من العذاب أو التمثيل ولو كان مخشي الخطر[150]. وكان احترام قلبه وفكره أعظم من سلامة جسده وتوفير ضروراته، فما يكره أسير على الإسلام، فإن قبله كان رغبة منه لارهبة، ذلك أن الإسلام مقت الفتنة، قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾[151] و لم ير الإسلام المعاملة بالمثل في هذا الجانب، بل سلّم للأسير بحرية العقيدة والفكر قال الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[152].

الحرية والتنافس السياسي:

كان التنافس السياسي بين القادة والولاة سببًا من أسباب الحرمان من الحرية. فقد كان كتاب الخلافة بالولاية أو العزل قراراً بالنصر لفريق والهزيمة لآخر. والإذن بأن

---

(149) الصديع: الصبح.

(150) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص149.

(151) سورة البقرة: 217.

(152) سورة البقرة: 256.

www.mtenback.com

يأخذ الخصم خصمه بما يشاء من العذاب. وكان المعزولون لا يسوؤهم العزل، إنما الكارثة عندهم أن تسند الإمارة إلى أعدائهم من القبائل وأن يتركوا في أيديهم أسرى.

كان إبراهيم بن عربي[١٥٣] واليًا على اليمامة، وكان شديد الضبط لولايته فكافح فيها اللصوص ونشر الأمن وأقر النظام وكان أميرًا مدة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. فلما استخلف سليمان وثب عليه أعداؤه وثقلوه بالحديد وسيروه إلى سجن المدينة. فمكن أعداءه من نفسه تورعًا من عصيان الخليفة، ولكن ما لبث أن تبين أن آسريه الحقيقيين هم خصومه الشاغبون عليه، وليس للخليفة من أرب في حبسه إلا تنصيب أنصاره على الأقاليم. فتمنى لو توارى عن الأنظار في مجاهل الأرض وهو الخبير بفجاجها ودروبها و لم يستسلم لأعدائه، وشعره يتحدث بذلك[١٥٤]:

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ سَلْعٍ لَلائِمُ ... لِنَفْسِي وَلَكِنْ مَا يَرُدُّ التَّلَوُّمُ

أَأَمْكَنْتُ مِنْ نَفْسِي عَدُوِّيَ ضِلَّةً ... أَلَهْفَا عَلَى مَا فَاتَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

لَوَ انَّ صُدُور الأَمْرِ يَبْدُونَ لِلْفَتَى ... كَأَعْقَابِهِ لَمْ تُلْفِهِ يَتَنَدَّمُ

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ فِجَاجٌ عَرِيضَةٌ ... وَلَيْلٌ سُخَامِيّ الْجَنَاحَيْنِ مُظْلِمُ

إِذِ الأَرْضُ لَمْ تَجْهَلْ عَلَيَّ فُرُوجُهَا ... وَإِذْ لِي عَنْ دَارِ الْمَذَلَّةِ مَرْغَمُ

فَلَوْ شِئْتُ إِذْ بِالأَمْرِ يُسْرٌ لَقَلَّصَتْ ... بِرَحْلِي قَتْلاَءُ الذِّرَاعَيْنِ عَيْهَمُ

عَلَيْهَا دَلِيلٌ بِالْفَلاةِ نَهَارُهُ ... وَبِاللَّيْلِ لاَ يُخْطِي لَهَا الْقَصْدَ مَنْسِمُ

---

[١٥٣] إبراهيم بن العربي أبوه كناني وأمه أنصارية وهي فاطمة بنت شريك، ربت مروان بن الحكم، وأنقذت حياته يوم الدار. انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ج٥، ص٧٩، ٣٣٩، ٣٤٧، ج٤ ص١٤٣.

[١٥٤] ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، ج٣، ص٢٣٦، (سلع).

www.mtenback.com

وروت كتب الأدب كيف فقد إبراهيم بن عربي حريته التي كانت السياسة سبباً في فقدانها، وأنه كان ضحية التنافس السياسي بين بعض وجهاء قريش وآل زياد. ومنشأ المنافسة هو الخطوات الجريئة المثيرة التي أقدم عليها معاوية بن أبي سفيان إذ استلحق زياد بن أبيه بنسبه، فأدخل على بني أمية رجلاً ليس منهم. فأثمرت هذه الخطوة السخرية في الأوساط القرشية والعربية، ولم يأبه معاوية بذلك ولا لغضب الأمويين أنفسهم.

وبعد موت زياد صار أبناؤه أمراء مرموقين ذوي ثراء وسلطان ومنتجعاً لشعراء زمانهم، وصحب يزيد بن مفرغ عباد بن زياد، وسار معه في حاشيته إلى أقصى المشرق طمعاً بما يؤمله الأتباع من الوفر والغنائم من جراء الصحبة والغزو. ولكن لا يلبث الجفاء أن يباعد بين الأمير والشاعر. إذ الشاعر يهدي إلى عباد الهجاء اللاذع والأمير يضيق عليه ويجرده من ماله ويثير عليه الغرماء حتى أدقع وحمله على بيع غلامه وجاريته، ثم اضطره إلى الهرب من حاضرة سجستان وكان سبب الخلاف التنافس بين عباد الذي ولاّه أخوه عبيد الله على البصرة، وسعيد بن عثمان بن عفان، الذي ولاه معاوية على خراسان وأمر عبيد الله أن يعينه بالرجال والأموال وبذلك غدا شرقي الخلافة مجالاً لمنافسة بين عبادّ وسعيد. وما كان القرشيون، والأمويون خاصة، ليرتاحوا لآل زياد، فهم عندهم أدعياء، غير أكفاء نسباً لهذه المناصب، وكانوا بلاشك يرون أنفسهم أحق بها وأجدر. وكان آل زياد يبادلونهم النفور. ويدل هجاء الشاعر لعباد أنه امتعض لولاية سعيد على خراسان أو تنقصه. وقد كان الشاعر حليفاً لقريش وولاؤه فيهم منذ أبيه، نشأ بين ظهرانيهم وأحبهم، وكان يشعر أن الواجب يقتضيه أن ينافح عنهم وأن يحفظ عيوبهم وأن يتجرد لخصومهم، فنهض بحق الحلف والصداقة فنشبت بينه وبين الأمير حرب.

www.mtenback.com

وأبدى الشاعر تجلدًا وصبرًا و لم يزدد إلا استهانة بآل زياد على ما هو فيه من الابتلاء بعد أن سُجن، موقنًا أن القرشيين حلفاءه مستنقذوه بما لهم من وجاهة عند الخليفة وفي ذلك يقول[١٥٥]:

قُرِنْتُ بِخِنْزِيرٍ وَهِرٍّ وَكَلْبَةٍ ... زَمَانًا وَشَانَ الْجِلْدَ ضَرْبٌ مُشَذَّبُ
وَجُرْعَتُهَا صَهْبَاءَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ ... تَصَعَّدُ فِي الْجُثْمَانِ ثُمَّ تَصَوَّبُ
مِنْ الطَّفِّ مَجْلُوبًا إِلَى أَرْضِ كَابُلٍ ... فَمَلُّوا وَمَا مَلَّ الأَسِيْرُ الْمُعَذَّبُ
فَلَو أَنَّ لَحْمِي إِذْ وَهَى لَعِبتْ بِهِ ... كِرَامُ مُلُوْكٍ أَوْ أُسُوْدٌ وَأَذْؤُبُ
لَهَوَّنَ مِنْ وَجْدِي وَسَلَّى مُصِيْبَتِي ... وَلَكِنَّمَا أَوْدَى بِلَحْمِيَ أَكْلُبُ
أَعَبَّادُ مَا لِلُّؤْمِ عَنْكَ مُحَوِّلٌ ... وَلاَ لَكَ أُمٌّ فِي قُرَيْشٍ وَلاَ أَبُ
سَيَنْصُرُنِي مَنْ لَيْسَ تَنْفَعُ عِنْدَهُ ... رُقَاكَ، وَقَرْمٌ مِنْ أُمَيَّةَ مُصْعَبُ
وَقُلْ لِعُبَيْدِ اللهِ مَا لَكَ وَالِدٌ ... بِحَقٍّ، وَلاَ يَدْرِي امْرُؤٌ كَيْفَ تُنْسَبُ

ولما أبطأ أشراف قريش في الإفراج عنه اضطر إلى تذكيرهم بمحنته وشقائه فقال:

قُلْ لِقَوْمِي لَدَى الأَبَاطِحِ مِنْ آ ... لِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ذِي الْجُودِ
سَامَنِي بَعْدَكُمْ دَعِيُّ زِيَادٍ ... خِطَّةَ الغَادِرِ اللَّئِيْمِ الزَّهِيْدِ
أَوْغَلَ الْعَبْدُ فِي الْعُقُوْبَةِ وَالشَّتْـ ... ـمِ وَأَوْدَى بِطَارِفِي وَتَلِيْدِي
فَارحَلُوا فِي حَلِيْفِكُمْ وَأَخِيْكُمْ ... نَحْوَ غَوْثِ الْمُسْتَصْرَخِيْنَ يَزِيْدِ
فَاطْلُبُوا النَّصْفَ مِنْ دَعِيِّ زِيَادٍ ... وَسَلُونِي بِمَا ادَّعَيْتُ شُهُوْدِي

[١٥٥] ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، مؤسسة الرسالة دمشق، (١٩٦٤)، ص١١٤.

www.mtenback.com

ولما استيأس الشاعر من حلفائه أوى إلى قومه من اليمن وكانت قوتهم في دمشق، فما إن أرسل إليهم بشعر يستصرخهم حتى حميت أنوفهم، فدخلوا على معاوية ولم يخرجوا إلا بالعفو عنه. وكانت فرحته باسترداد حريته غامرة بعد حبس طويل وعذاب ثقيل، فأحس نعمة الخليفة عليه، فشكر له شكرًا مخلصًا. وخرج لا يميل إلى حلفائه ولا على أعدائه. وكان راضيًا أن يظفر بالعافية بعد معركة لم تكن معركته. ويتجلي فرحه في شعر خاطب به بغلة البريد التي قدمت له ليرتحل من محبسه إلى الشام وهو حر طليق كسب الحرية وكافح من أجلها[١٥٦]:

عَدَسْ، مَا لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ ... نَجَوْتِ وَهَذَا - تَحْمِلِينَ - طَلِيْقُ

طَلِيْقُ الَّذِي نَجَّى مِنَ الْكَرْبِ بَعْدَمَا ... تَلاَحَمَ فِي دَرْبٍ عَلَيْكَ مَضِيْقُ

قَضَى لَكِ حَمْحَامٌ بِأَرْضِكِ فَالْحَقِي ... بِأَهْلِكِ لاَ يُؤْخَذْ عَلَيْكِ طَرِيْقُ

لَعَمْرِيْ لَقَدْ أَنْجَاكِ مِنْ هُوَّةِ الرَّدَى ... إِمَامٌ وَحَبْلٌ لِلأَنَامِ وَثِيْقُ

سَأَشْكُرُ مَا أُولِيْتُ مِنْ حُسْنِ نِعْمَةٍ ... وَمِثْلِيْ بِشُكْرِ الْمُنْعِمِيْنَ حَقِيْقُ

ذَرِي وَتَنَاسَي مَا لَقِيْتُ فَإِنَّهُ ... لِكُلِّ أُنَاسٍ خَبْطَةٌ وَحَرِيْقُ

فَيَا بَغْلَةً شَمَّاءَ لَوْ كُنْتُ مَادِحًا ... مَدَحْتُكِ، إِنِّي لِلْكَرِامِ صَدِيْقُ

وقد يلتبس الأمر أحيانًا على بعض الناس، فيطلبون أكثر مما يستحقون حتى في الحرية التي هي طبيعة العربي وميزته، وقد كانت هناك فئة من العرب طلبت من الحرية أكثر مما تستحق وأكثر مما تسمح به طبيعة المجتمع العربي وضوابطه العادلة لممارسة الحريات. وقد عرفت هذه الفئة عند العرب بالصعاليك، فهم يطلبون حرية بلا حدود،

---

[١٥٦] الأغاني: ج١٧، ص٦٠، الديوان: ص ١٧٧. عدس: زجر البغلة. حمحام: اسم صاحب البريد الذي أرسله معاوية لإخراجه من السجن، وحريق: أذى وضر كبير.

www.mtenback.com

ويتحللون من الالتزامات الاجتماعية، عندئذ تخلت قبائلهم عنهم ورفضت أن تكون الحرية التي يطلبونها سببًا في كسر قواعد النظام الاجتماعي. وقد أصبحت الصعلكة ظاهرة اجتماعية لها أسبابها العامة والخاصة وأعظم هذه الأسباب خطرًا الفقر والجوع الناجمان عن التفاوت الكبير في امتلاك الثروات، وتعدد الطبقات من أشراف وموالٍ وعبيد، والخلافات، القبلية الداخلية، والنزاع السياسي الحربي، والعامل المشترك بين جميع الأسباب، استعداد النفوس للحرية غير المنظمة، والحصول على المال بالعنف والاستمتاع بحياة اللهو، وإرسال النفس على سجيتها في طلب المتعة حرة في أرجاء الأرض، لا تعترف بقيود المجتمع، ولا تحد حريتها قوانينه وأعرافه.

وبعض عوامل الصعلكة ذاتي، فثمة رجال فطرت نفوسهم على العزة والأنفة من الضيم، وإذا لم يتيسر لهم أن يرتفعوا في جماعاتهم بالطرق الحميدة السليمة تمردوا وسلكوا سبيلاً للتميز والعلو بارتكاب الأخطار ومخالفة العرف والقانون وإظهار البأس والبطولة.

وخير من يبرز خصائص هذا الصنف الشاعر جحدر بن مالك بن معاوية العكلي. وكانت اليمامة وما حولها مسرح أعماله. وكان يؤمن أن القوة خير سبيل لتأمين المعاش،وأن طلب الرزق من غير الحرب عجز، يقول[١٥٧]:

وَإِنَّ امْـرءًا يَعْـدُو وَحِجْـرٌ وَرَاءَهُ ... وَجَـوٌّ وَلاَ يَغْزُوهُمَـا لَضَعِيْـفُ

إِذَا حُلَّـةٌ أَبْلَيْتُهَـا ابْتَعْـتُ حُلَّـةً ... لِسَـانِيَّةً طَـوْعَ الْقِيَـادِ عَلِيْـفُ

سَعَى الْعَبْدُ إِثْـرِيْ سَـاعَةً ثُـمَّ رَدَّهُ ... تَذَكُّـرُ تَنُّـوْرٍ لَـهُ وَرَغِيْـفُ

وقد روع جحدر الناس وخرق الأمن، فأرسل عبد الملك بن مروان إلى اليمامة واليًا ضابطًا هو إبراهيم بن عربي، فجد في طلبه حتى قبض عليه، فلبث في السجن،

[١٥٧] ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (١٩٥٧)، (جو).

www.mtenback.com

وكانت أخباره قد بهرت الحجاج بن يوسف الثقفي فأمر بحمله إلى حبسه في العراق. وكان الحبس لجحدر أزمة خانقة غير ما لقي فيها من الضيق والخوف أعاد إلى نفسه صفاءها حتى خرج منها إنسانًا قادرًا على الاستقامة.

وكان دخوله السجن أول الصدمة، إذ ألفى نفسه في وسط يزخر بالأشرار، وكان عند نفسه كريمًا كبيرًا على ما يحترف من الأعمال وكان يرى أنه صاحب أمر جدير بالإكبار، حيث إن غاراته ما هي إلاّ ضربٌ من الثورة على الفقر والظلم والاستئثار وهذا منشأ إحساسه بأنه حبس مظلومًا. قال في سجنه[١٥٨]:

أَقُولُ لَلصَّحْبِ فِي الْبَيْضَاءِ دُونَكُمُ ... مَحَلَّةً سَوَّدَتْ بَيْضَاءَ أَقْطَارِي

مَأْوَى الْفُتُوَّةِ لِلأَنْذَالِ مُذْ خُلِقَتْ ... عِنْدَ الْكِرَامِ مَحَلُّ الذُّلِّ وَالْعَارِ

وقال أيضًا:

لَوْ يُتْبَعُ الْعَدْلُ فِيمَا قَدْ مُنِيتُ بِهِ ... أَوْ يُتْبَعُ الْحَقُّ مَا عَمَّرْتُ دَوَّارَا

وكان جحدر رجلاً حرًا ثقل عليه السجن وأشقاه خسران الحرية، ومن هنا كان عذابه النفسي الذي أسهم في عودته إلى نقائه واستيقن أن لا سبيل إلى الحرية والأمن إلا بالمتاب والاستقامة، فلاذ بأمير اليمامة يمدحه مخلصًا ويستجير به من السجن والعذاب ويسأله العفو ويعلن التوبة بلسان صادق الندم راغب في البراءة، فقال[١٥٩]:

يَا نَفْسُ لاَ تَجْزَعِي إِنِّي إِلَى أَمَدٍ ... وَكُلُّ نَفْسٍ إِلَى يَوْمٍ وَمِقْدَارِ

للهِ أَنْتِ فَإِنْ يَعْصِمْكِ فَاعْتَصِمِي ... وَإِنْ كَذَبْتِ فَحَسْبِيْ اللهُ مِنْ جَارِ

ادْعِيْهِ سِرًّا وَنَادِيْهِ عَلاَنِيَةً ... وَاللهُ يَعْلَمُ إِعْلاَنِي وَإِسْرَارِي

---

[١٥٨] ياقوت الحموي، معجم البلدان، (البيضاء).

[١٥٩] ابن ميمون، أبو غالب محمد بن المبارك، منتهى الطلب من أشعار العرب، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إستانبول، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، م١، ص٢٥٠.

www.mtenback.com

وَمَا السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا لِـــذِيْ أَمَـــلٍ إِنَّ السَّعِيْدَ الَّذِي يَنْجُو مِـــنَ النَـــارِ

ولكن جحدرًا لم ينتفع بذلك وحمل إلى حبـــس الحجـــاج، فأهمتـــه نفســـه وتضاعفت فيها الأحزان، ولاشيء يصور همومه مثل مطلع نونيته التي أرســـلها مـــن سجن الحجاج[١٦٠]:

تَـــأَوَّبَنِي فَبِـــتُّ لَهَـــا كَئِيبًـــا هُمُـــومٌ لاَ تُفَـــارِقُنِي حَـــوَانِ

هِـــيَ الْعُـــوَّادُ لاَ عُـــوَّادُ قَوْمِـــي أَطَلْـــنَ عِيَـــادَتِي فِـــي ذَا الْمَكَـــانِ

إِذَا مَا قُلْـــتُ: قَـــدْ أَجْلَيْـــنَ عَنِّـــي ثَنَـــي رَيْعَـــانَهُنَ عَلَـــيَّ ثَـــانِ

فَـــإِنَّ مَقَـــرَّ مَـــنْزِلِهِنَّ قَلْبِـــي فَـــإِنْ أَنْقَهْتُـــهُ فَـــالْقَلْبُ آنِ

وأنصت الحجاج لما يقوله في سجنه فاستشف في شعره سماحة وخلقًا. وســـأله الحجاج: ما حملك على ما صنعت، فقال: كَلَب الزمان وجرأة الجنـــان[١٦١]. وكـــان جحدر في قناعة الحجاج محكومًا عليه بالموت، ولكنه فتح له نافذة ضيقة من الأمـــل إن أخرجته منها بطولته استحق الحياة. فخيره بين الموت أو نزال أسد ضارٍ مجوع، فاختـــار الثانية. ووقف له بقيده والسيف بيده، وكانت فرصته الأخيرة والبرهان الساطع علـــى بطل مضيع. ووقف للسبع بين مخافة المعجبين وشماتة الجبناء، وتشبث بالحياة، واستبسل فقتل خصمه. وخرج بعد هذه المحنة إنسانًا مستصلحًا مأمونًا في خدمة الدولة. وقـــد وصف الشاعر مشاعره عند قتله الأسد، وهو ينتظر أن يبر له الحجاج بالوعد فيطلقـــه فقال[١٦٢]:

---

[١٦٠] ابن ميمون: منتهى الطلب: ٢٤٨.

[١٦١] ياقوت الحموي: معجم البلدان (حجر).

[١٦٢] البصري، علي بن أبي الفرج بن الحسن، الحماسة البصرية، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتـــب، بيروت ط٣، (١٩٨٣م)، ج٢، ص٣٣٧.

www.mtenback.com

يَا جُمْلُ إِنَّكِ لَوْ شَـــهِدْتِ كَرِيْهَتِـــي ... فِي يَوْمِ هَـــوْلٍ مُسْـــدِفٍ وَعَجَـــاجِ
وَتَقَدُّمِـــي لِلَّيْـــثِ أَرْسُـــفُ مُوْثَقًـــا ... كَيْمَـــا أُكَـــابِرُهُ عَلَـــى الأَحْـــدَاجِ
أَقْبَلْتُ أَرْسُفُ فِي الْحَدِيْـــدِ مُكَبَّـــلاً ... لِلْمَوْتِ نَفْســـي عِنْـــدَ ذَاكَ أُنَـــاجِي
وَالنَّاسُ مِنْهُـــم شَـــامِتٌ وَعِصَابَـــةٌ ... عَبَرَاتُهُمْ بِي فِي الْحُلُـــوقِ شَـــوَاجِي
نَازَلْتُـــهُ إِنَّ الـــنِّزَالَ سَـــجِيَّتِي ... إِنِّي لَمِـــنْ سَـــلَفِي عَلَـــى مِنْهَـــاجِ
وَعَلِمْتُ أَنِّـــي لَـــوْ أَبَيْـــتُ نِزَالَـــهُ ... أَنِّي مِـــنَ الْحَجَّـــاجِ لَسْـــتُ بِنَـــاجِ
فَفَلَقْـــتُ هَامَتَـــهُ فَخَـــرَّ كَأَنَّـــهُ ... أُطُـــمٌ هَـــوَى مُتَقَـــوِّضَ الأَبْـــرَاجِ
ثُمَّ انْثَنَيْتُ وَفِـــي قَمِيْصِـــيَ شَـــاهِدٌ ... مِمَّا جَـــرَى مِـــنْ شَـــاخِبِ الأَوْدَاجِ

وأمثال جحدر كثر من الذين آثروا أخطار الموت على مذلة الفقر وفقد الحريـــة، فذهبوا في التصعلك واللصوصية، فتخلت عنهم عشائرهم وتبرأت إلى العرب منهم، لمـــا كان لهم من جرائم باهظة يثقل احتمالها. وقد كان مسلكهم سبباً في حبسهم وفقـــد حريتهم.

من هؤلاء تليد الضبيّ الذي دخل السجن في أيام عمر بن عبد العزيز فسلط عليه العذاب و لم يرفعه عنه حتى جهر بالتوبة، وهو يحلم أن يطلق سراحه، ويقود عصابتـــه بين البوادي يغير على أرباب الإبل والنعم ويستاق ما استطاع فخرج وهو يردد[١٦٣]:

يَقُولُونَ: جَـــاهِرْ يَـــا تَلِيْـــدُ بِتَوْبَـــةٍ ... وَفِي النَّفْسِ مِنِّي عَـــوْدَةٌ سَـــأَعُودُهَا
أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُـــودَنَّ عُصْبَـــةً ... قَلِيْلٌ لِـــرَبِّ الْعَـــالَمِيْنَ سُـــجُوْدُهَا
وَهَلْ أَطْرُدَنَّ الدَّهْرَ مَا عِشْتُ هَجْمَةً ... مُعَرَّضَةً الأَفْخَاذِ سَـــحْجًا خُدُوْدُهَـــا

(١٦٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان (جرش).

www.mtenback.com

قُضَاعِيَّةً حُمَّ الذُّرَى فَتَرَبَّعَتْ حِمَى جَرَشٍ قَدْ طَارَ عَنْهَا لُبُودُهَا

ومنهم طهمان الدارمي الذي كان لصًّا مشهورًا في خلافة معاوية وسجن في نجران وأسره الخوارج وقطعوا يده. فذكر طهمان، وهو في سجن نجران، تأبده مع زميل له لص، فقال[١٦٤]:

وَإِنِّي وَالْعَبْسِيَّ فِي أَرْضِ مِذْحَجٍ غَرِيبَانِ شَتَّى الدَّارِ مُخْتَلِفَانِ
غَرِيبَانِ مَجْفُوَّانِ أَكْثَرَ هَمِّنَا وَجِيفُ مَطَايَانَا بِكُلِّ مَكَانِ
فَمَنْ يَرَ مَمْسَانَا وَمَلْقَى رِكَابِنَا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمْ أَنَّنَا سَبُعَانِ

وممن تطاول عليهم الحبس المرار الفقعسي، وكان هو وأخوه لصين محترفين أضرت بهما الفاقة، وكانا ضالعين بسرقة الإبل، يطردان هجمات منها ويبيعانها في أسواق بعيدة.

وكثر ترددهما على السجون بين نجد والحجاز، وكان المرار حبس في اليمامة ثم أفلت، فقال في ذلك[١٦٥]:

فَيَا وَيْلَتَا سِجْنِ الْيَمَامَةِ أَطْلَقَا أَسِيرًا كَمَا يَنْظُرْ إِلَى الْبَرْقِ مَا يُفْرِي
وَلَوْ فَارَقَتْ رِجْلِي الْقُيُودُ وَجَدْتَنِي رَفِيقًا بِنَصِّ الْعِيسِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ

وكانت غارات هؤلاء اللصوص العتاة تتراكم في عداوات لا تنام إلا بعد الثأر. وسرقة الأموال وحدها يسيرة الخطب، أما إذا اقترنت بالقتل فإنها تحرك شعورًا عصيبًا عامًا، ويصبح القاتل مطاردًا من كل فرد من قبيلة القتيل.

---

[١٦٤] ياقوت الحموي: معجم البلدان (رمخ).

[١٦٥] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٠، ص٣٢٩.

www.mtenback.com

وهذه الحال كانت مأساة السمهري[١٦٦] إذ أصاب دمًا في إحدى غاراته، فأبت قبيلته احتمال جنايته، وقعدت عن نصرته في تشرده وسجنه قعودًا أغضبه فلما حبس بالمدينة قال[١٦٧]:

أَلاَ لَيْتَني مِنْ غَيْرِ عُكْلٍ قَبِيْلَتي ... وَلَمْ أدْرِ مَا شُبَّانُ عُكْلٍ وَشِيْبُهَا
قُبَيِّلَةٌ لاَ يَقْرَعُ الْبَابَ وَفْدُهَا ... لِخَيْرٍ وَلاَ يَأْتِي السِّدَادَ خَطِيْبُهَا

وكان هذا الشاعر رجل ملمات، هام على وجهه وأعدؤاه يجدون في طلبه، يدخل الصحاري المنقطعة والجبال والفلوات النائية يبحث عن إنسان نبيل يحميه حتى همّ باللجوء إلى عمان. واستطاع السلطان العثور عليه قبل أن يتوارى فحمل إلى سجن المدينة، ولما استفتي الخليفة في شأنه أمر بدفعه إلى أولياء القتيل فقتلوه. ومن أشعاره في الحبس[١٦٨]:

لَقَدْ طَرَقَتْ لَيْلَى وَرِجْلِي رَهِيْنَةٌ ... فَمَا رَاعَنِي فِي السِّجْنِ إلاَّ سَلاَمُهَا
فَلَمَّا ارْتَفَقْتُ لِلْخَيَالِ الَّذِي سَرَى ... إذِ الأَرْضُ قَفْرٌ قَدْ عَلاَهَا قَتَامُهَا

وأمثال هؤلاء الصعاليك كما تبين، منبوذون من قبائلهم، مطاردون، وقد تساند عشائرهم السلطة في القبض عليهم. وأكثرهم حانق على قبيلته، مقطوع ما بينهما من عواطف الود. ومنهم من ظل محتفظًا بالحمية القبلية وبُمثُلها احتفاظًا جاهليًا رغم تجافي عشيرته عنه ونفورها من جرائره، فيلزم نفسه بتصرفها أيًا كان رأيه الشخصي فيه، ويطلب منها الحماية والاستنقاذ في الملمات.

---

[١٦٦] السمهري بن بشر العكلي، من شعراء الدولة الأموية، كان من اللصوص. انظر: الأغاني: ٢١/٥٣، ومنتهى الطلب: ١/ ٢٤٨.

[١٦٧] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ٢٩/٥٥.

[١٦٨] ابن ميمون: منتهى الطلب من أشعار العرب، ١/٢٤٨.

www.mtenback.com

وفي سجن الشاعر اللص الخطيم المحرزي[١٦٩] ما يوضح هذه الحقائق. كانت العصبية بضراوتها ورعونتها تستحوذ عليه وترسم له سيره. وكان إحساسه بكيانها ضخمًا يشعر أنه قادر بها على اجتياح الأرض ومن عليها لولا ما يعترض سبيله من ضغط أمراء قريش عليه.

وكان الخطيم يعلم من نفسه بسالة وإقدامًا وهي صفات أصيلة فيه ولولا انحراف في حياته إلى اللصوصية لكان في عشيرته شريفًا أو في جيش أمته قائدًا مغوارًا.

ولم يحبس الخطيم في سرقة، وإنما قاده إلى الحبس شجار بين العشائر إذ تنافس بطنان من قبيلته على الشرف،ونشب القتال وسالت الدماء , فأنذر الشاعر قومه بالكف حتى لا تتحطم وحدة القبيلة ومن ذلك قوله:

أَخِلاَّيَ لَمْ يَشْمَتْ بِنَا ذُوْ شَنَاءَةٍ ... وَلَمْ تَضْطَرِبْ مِنِّي الْكُشُوحُ عَلَى غِمْرِ

وَلاَ مِنْهُمُ حَتَّى دَعَتْنَا غُوَاتُنَا ... إِلَى غَايَةٍ كَانَتْ بِأَمْثَالِنَا تُزْرِي

لَحَا اللهُ مَنْ يَلْحَى عَلَى الْحِلْمِ بَعْدَمَا ... دَعَتْنَا رِجَالٌ لِلْفَخَارِ وَلِلْعَقْرِ

وَقُلْتُ لَهُم: إِنْ تَرْجِعُوا بَعْدَ هَذِهِ ... جَمِيْعًا فَمَا أُمِّي بِأُمِّ بَنِي بَدْرِ

قَدَحْنَا فَأَوْدَيْنَا عَلَى عَظْمِ سَاقِنَا ... فَهَل بَعْدَ كَسْرِ السَّاقِ لِلْعَظْمِ مِنْ جَبْرِ

ولم يجد إنذار الشاعر قومه ولكن الجهل ركب الجانبين معًا، فكان هو عندئذ أجهل الجاهلين. وكان له في الجانب الآخر بلاء وفتك. وتدخلت السلطة وأمسكت برؤوس الفتنة وأولي البأس فكان الخطيم معهم. وسجن في نجران وكان يترقب محاماة قبيلته عنه وتخليصه من محبسه. ولكن الفتن التي تكثر فيها الجراح والديات، وتعزم فيها

---

[١٦٩] الخطيم المحرزي من شعراء الدولة الأموية،وهو من بني عبد شمس من بني محرز وقد شهروا بعدة من اللصوص الشعراء ذوي الأخطار، انظر: ياقوت الحموي. معجم البلدان: (بلي).

www.mtenback.com

الدولة على الضبط والقصاص، لا يجدي كثيراً فيها التدخل مع التعصب القبلي. فكان الخطيم مطالبًا بالعزم والقَوَد ممن أصابهم وللدولة عليه حق العقاب. وهو أيضًا صعلوك محترف للصوصية ليس له في عشيرته نفسها وجاهة، وليست عليه بذات غيرة، فتركته يعاني عذاب السجن. ولما استيأس منها عول على نفسه ففر من السجن واختفى في الفلوات المخوفة والبعوث تتعقبه، فكان يتوارى نهاره ويدلج ليله على رثاثة وخوف وكلال. ويمم وجهه الشام وألقى نفسه على ولي عهد الخلافة سليمان بن عبد الملك مستجيراً به من جرائر ضَعُفَ رهطه عن احتمالها فنهض بأمره وصلاح حاله[١٧٠].

ودخل بعض الصعاليك السجن لحوادث خاصة لو أمكن اجتنابها لاختلف مستقبل صاحبها. والقَتّال الكلابي[١٧١] أحد الشعراء الذين احترفوا الإجرام والصعلكة اضطرارًا، نتيجة تصرف طائش جنح به إلى الشرور، حتى صار جانبه مخوفًا مهجوراً. وكان معروفًا في قبيلته بالبأس، مطبوعًا على الشراسة، عنيدًا لايثنيه وعيد، رقيق الدين، متشبعًا بروح الصحراء والعصبية، إذا هيج تنبهت فيه وحشية لا تخشى النتائج. وهذه الوحشية هي التي ضربت عليه التأبد والعزل القبلي والسجن والشقاء، ثم احتراف الجريمة وغلبته على التعقل مرتين، مرة حين قتل ابن عمه والأخرى عندما قتل سجانه وهرب، وكان ارتكابه للجريمتين في حال من الهيجان الأعمى. وقد وصف القتال غلبة الغضب الوحشي عليه حين قتل السجان فقال[١٧٢]:

وَلَمَا رَأَيْتُ الْبَابَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ ... وَخِفْتُ لَحَاقًا مِنْ كِتَابٍ مُؤَجَّلِ

---

[١٧٠] انظر لاميته في منتهى الطلب، لأبي غالب ابن ميمون ١/٢٤٧.

[١٧١] اسمه عبد الله بن مجيب الكلابي وهو من اللصوص، حبس في أيام مروان بن الحكم. انظر: منتهى الطلب لأبي غالب ابن ميمون ١/٢٥٥.

[١٧٢] ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص٧٧.

www.mtenback.com

رَدَدْتُ عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسًا شَرِيْسَةً ... إِذَا وُطِّنَتْ لَمْ تَسْتَقِدْ لِلتَّذَلُّلِ
يَشُدُّ وَثَاقِي عَابِسًا وَيَتُلُّنِي ... إِلَى حَلَقَاتٍ فِي عَمُودٍ مُرَمَّلِ
أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْصِبُ رَأْسَهُ ... أَنَا ابْنُ أَبِي أَسْمَاءَ غَيْرُ التَّنَحُّلِ
عَرَفْتُ نَدَايَ مِنْ نَدَاهُ وَجُرْأَتِي ... وَرِيْحًا تَغَشَّانِي إِذَا اشْتَدَّ مِسْحَلِي

وكانت الحادثة الأولى في عنفوان شبابه، وكان يتعشق في حيه ابنة عم له ويغازلها، فنهي عن ذلك وهدد، ولكنه رجل لا يزيده التهديد إلا ولوعًا، وعاود المغازلة عنادًا واستخفافًا من غير هوى غالب. ورآه أخوها مرة يتحدث إليها فعدا وراءه والسيف بيده وهو يقسم على قتله. ولم يكن يريد من ذلك غير العبث، فهرب عنه[١٧٣] يسأله بالله والرحم أن يكف عنه وابن عمه يشتد وراءه يرغي ويشتم حتى استغضب القتال، فتنمرت وحشيته، فعطف عليه وقتله، ثم اختفى من وجه طالبيه، واعتصم وحده في جبل منيع. ولم يستطع مبارحة الجبل حتى صالح أخوه عنه. ومع ذلك لم يقدر على العودة إلى قبيلته لازورارها عنه بعد جريمته، فانحدر إلى البوادي ورافق اللصوص، وترأس عصابة لهم. وكان يخيف بها السبيل حول المدينة في ولاية مروان ابن الحكم. ولعل مروان أراد تألفه واستصلاحه فاستدعاه فلم يطمئن القتال إليه وتباعد عن يده. وقد عبر عن ذلك بقوله[١٧٤]:

وَأَرْسَلَ مَرْوَانُ الأَمِيْرُ رِسَالَةً ... لآتِيَهُ إِنِّي إِذَنْ لَمُضَلَّلُ
وَمَا بِي عِصْيَانٌ وَلا بُعْدُ مَنْزِلٍ ... وَلَكِّنِي مِنْ سِجْنَ مَرْوَانَ أَوْجَلُ
وَفِي سَاحَةِ الْعَنَقَاءِ أَو فِي عَمَايَةٍ ... أَوْ الأُدْمَى مِنْ رَهْبَةِ الْمَوْتِ مَوْئِلُ

---

[١٧٣] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ٢٠/ ١٥٩

[١٧٤] ديوان القتال الكلابي، ص٧٧، العنقاء: أكمة فوق جبل مشرف أوى إليه القتال. الأدمى: أرض ذات حجارة في بلاد قشير، موئل: منجى.

www.mtenback.com

وخاف أهل المدينة القَتّال ومقتوه لاحترافه الجريمة، وصار يؤجر نفسه لمن يريد قاتلاً فيقتل له.

وصدف أن أحد الأشراف وهو مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري تغيظ على ابن عم له، هو إسماعيل بن هبار، فبيّت قتله، فاستقدم القتال وآمره على ذلك. وأنفذ القتال الأمر في بيت المقتول وهرب بعصبته إلى الصحراء، فتجرد الأمير يطلبه حتى أمسك به وبمن آمره وحبسهم في سجن المدينة،ولم يشأ الأمير أن يحكم بقتله، ولم يعثر على بينة دامغة، فأرسل إلى الخليفة يستفتيه في شأنه. وأحس القتال بالخطر وهو يترقب كتاب الخليفة، فكان لا يفتح عليه الباب إلا ظن أنه مدعو للموت[١٧٥]. وتذكر الروايات أن القتال قتل السجان وهرب، وقال[١٧٦]:

نَظَرْتُ وَقَدْ جَلّى الدُّجَى طَاسِمِ الصُّوَى ... بِسَلْعٍ وَقَرْنُ الشَّمْسِ لَمْ يَتَرَجّلِ

إِلَى ظُعُنٍ بَيْنَ الرَّسِيْسِ فَعَاقِلٍ ... عَوَامِدَ لِلشَّيْقَيْنِ أَوْ بَطْنِ خَنْثَلِ

أَلاَ حَبّذَا تِلْكَ الدِّيَارُ وَأَهْلُهَا ... لَوَ انَّ عَذَابِي بِالْمَدِيْنَةِ يَنْجَلِي

بَرَزْتُ بِهَا مِنْ سِجْنِ مَرْوَانَ غُدْوَةً ... فَآنَسْتُهَا بِالأَيْمِ لَمَّا تَحَمَّلِ

كانت للحرية حدود لا يمكن تجاوزها، ولا يقبل المجتمع أن تكون حرية أفراد منه مصادرة لحريته وأمنه، فأحكم القياد على العابثين بقوانين الاجتماع وصادر حريتهم، وأنزلهم غياهب السجون، فكانت شكوى هؤلاء من السجن ومن سلب الحرية مُرّة قاسية على قلوبهم، وحرارة ملتهبة في صدورهم عبّروا عنها بشعرهم الذي مرّ بعض منه، وجسّموا أخطاء المجتمع الذي ينتصف منهم ويصادر حريتهم.

---

[١٧٥] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج٢٠، ص١٥٩.

[١٧٦] ديوان القتال الكلابي ص٧٣، جلاها: أبرزها: أي انجلى عنها فظهرت، طاسم: طامس ودارس و الصوى: المعالم، سلع: جبل بالمدينة، ترجّل: ارتفع، الرسيس: وادٍ بنجد، عاقل: اسم لموضع، الشيقان: موضع قرب المدينة، خنثل: موضع في ديار بني كلاب.

www.mtenback.com

الحرية ومخالفة الآداب والأعراف:

الغزل والحرية:

امتدت الحرية الشخصية إلى الفن والشعر والأدب، ومارس العرب حرية تامة في الشعر ولا سيما شعر الغزل، الذي يتعلق بوصف المرأة وعلاقة الشاعر بها أو حبه إياها. كان الغزل في الجاهلية تقليداً تُفْتَتَح به القصائد، ويتوسل به الشاعر إلى قلوب سامعيه بما يحب ويحبون من نسيب بمحبوبته وتعداد لمفاتنها وسرد مغامراته الغرامية أحيانًا، ولا يتأذى أحد بما يسمع ولا يجدون فيه مساءة أو خروجًا عن الأعراف.

ولم يشجب الإسلام هذا الطراز من الغزل. كما أن الرسول ﷺ لم ينه عنه باعتباره تقليداً جاريًا لا يتوجه بالإيذاء إلى أحد مقصود، فاستمع في مسجده إلى كعب ابن زهير بن أبي سلمى ينشده القصيدة التي شهرت بالبردة. وكان كعب استهلها بغزل عفّ بامرأة أسماها سعاد[١٧٧].

وبذلك أجيز البوح العاطفي المجرد، بوصفه شعوراً إنسانيًا ساميًا جديرًا بالتقدير، على أنه من عبث القول وتعلاته، وليس من الجد والتشهير، وكشف الستر عن المحصنات الغافلات. فكان كبار العلماء والفقهاء لا يتحرجون من الاستماع إليه، على أنه من جميل القول: ومن ذلك أن عمر بن أبي ربيعة جلس في حلقة عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأنشده رائيته:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبكِرُ[١٧٨].

فأعجب ابن عباس بها ودافع عنها عند اعتراض نافع بن الأزرق. عليه وكان ابن عباس يحفظ القصيدة بما فيها من غزل[١٧٩].

---

[١٧٧] ديوان كعب بن زهير، وزارة الثقافة، مصر، ١٩٦٥ص ٦.

[١٧٨] ديوان عمر بن أبي ربيعة، الطبعة الميمنية، القاهرة، ١٣١١هـ.

[١٧٩] المبرد، أبوالعباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمود شاكر، مصر، (١٩٣٧م)، ج٢، ص٩٦٤.

www.mtenback.com

وفي العصر الأموي تطور الغزل تطوراً ملحوظًا وجنح إلى الاستقلال عن الأغراض الأخرى في القصيدة التقليدية، وتميز به شعراء في بلدان الحجاز وباديه، شهر بعضهم بامرأة مخصوصة وشغل بعضهم بعدد من النساء. وكانت أشعارهم أحيانًا تُحمل على الجدّ والحقيقة لا على الادعاء. وروّج لها بعض الغناء الذائع، وصارت مطلبًا للجيل الجديد. وربما كان مسرة لبعض النساء أن يذكرهن في غزلٍ كبارُ الشعراء، وكان منهم من يتعرض لهن في المحافل - ومنهن نساء علية القوم والأسر الحاكمة - عمدًا بدوافع مختلفة.

ولم يعرف الحجاز، رغم تباين الغزل فيه، من عذريّ صائن ومادي عابث، مفارقةً كبيرة للذوق المحافظ أو إخلالاً بالآداب المتعارفة، وإن أخذ عمر بن أبي ربيعة وأضرابه من شعراء الغزل الصريح ببوادر الحرية والجرأة في تصوير مواقف اللقاء والاجتماع المحظور.

ولكن العراق، ملتقى الأجناس والثقافات والأذواق، وبلد الحروب والثورات، والرقي والازدهار، هو الذي شهد انحدار الغزل إلى ما وراء الحشمة من المجون والحديث الفاضح عن الشهوات و الموبقات.

وقد كان الغزل سببًا في أن فقد كثير من الشعراء حريتهم، منهم الأحوص الأنصاري[١٨٠]، الذي كان يتغزّل بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة، ويتغنى في شعره معبد وغيره من المغنين، ويشيع ذلك في الناس، وقد نهي فلم ينته. حتى كتب بشأنه أمير المدينة أبو بكر بن محمد بن حزم إلى الخليفة، فأمر بتقييده وتغريبه إلى دهلك[١٨١] ليحبس فيها فنفذ الأمر على أقبح صورة وأغلظها، وطال بقاء الأحوص سجينًا منفيًا محرومًا من الحرية التي أساء استعمالها.

---

[١٨٠] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٤، ص٤٠-٥٩..

[١٨١] دهلك: جزيرة بين بلاد اليمن والحبشة، ضيقة حرجة حارة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها (ياقوت الحموي) معجم البلدان بيروت، دار صادر، (١٩٥٧م).

www.mtenback.com

ومن سجنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يذكره بحق القرابة التي تصل بينه وبين الأنصار. فقد كانت جدة عمر - وهي زوج عاصم بن عمر بن الخطاب - أنصارية، وإلى ذلك يشير الأحوص بقوله[١٨٢]:

وَكَيْفَ تَرَى لِلعَيْشِ طِيْبًا وَلَذَّةً وَخَالُكَ أَمْسَى مُوثَقًا فِي الْحَبَائِلِ

وقد أرسل الأحوص من سجنه قصيدة تعبر عن ألمه وغيظه من تقديم ابن حزم عليه، وهو في رأيه دونه سابقة عند الأمويين ونسبًا وكفاءة، ليقول فيها[١٨٣]:

أَلَسْتَ أَبَا حَفْصٍ ـ هُدِيْتَ ـ مُخَبِّرِي أَفِي الْحَقِّ أَنْ أُقْصَى وَيُدْنَى ابْنُ أَسْلَمَا

أَلاَ صِلَةُ الأَرْحَامِ أَدْنَى إِلَى التُّقَى وَأَظْهَرُ فِي أَكْفَائِهِ لَوْ تَكَرَّمَا

فَمَا تَرَكَ الصُّنْعُ الَّذِي قَدْ صَنَعْتَهُ وَلاَ الْغَيْظُ مِنِّي بَعْدُ جِلْدًا وَ أَعْظُمَا

وَقَدْ كُنْتَ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِي مَوَدَّةً لَيَالِيَ كَانَ الظَّنُّ غَيْبًا مُرَجَّمَا

أَعُدُّكَ حِرْزًا إِنْ جَنَيْتُ ظُلاَمَةً وَمَالاً ثَرِيًّا حَيْنَ أَحْمِلُ مَغْرَمَا

تَدَارَكْ بِعُتْبَى عَاتِبًا ذَا قَرَابَةٍ طَوَى الْغَيْظَ لَمْ يَفْتَحْ بِسُخْطٍ لَهُ فَمَا

وكان الأحوص يرى أن مأساته مع ابن حزم هي مأساة قومه أجمعين، ولذلك تماسك من غير استخذاء عند العقوبة، وظلت عصبيته طوال سجنه لم تخمد، ينهال على آل حزم هجومًا ووعيدًا بالهجاء الفاضح، ويعاتب عمر بن عبد العزيز على إهماله له وإطالة حبسه وتقديم أعدائه عليه، وصوته عال، وقلبه حانق غاضب. نقل أبو

---

[١٨٢] الأنصاري، الأحوص بن حمد، شعر الأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق: إبراهيم السامرائي، مطبعة النعمان، بغداد، العراق، (١٣٨٨هـ/١٩٩٦م)، ص١٧٥. وانظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج٤، ص٥٠.

[١٨٣] ديوان الأحوص الأنصاري: ص١٩١، وانظر: الأغاني، ج٤، ص٤٩.

www.mtenback.com

الفرج عن بعضهم، قال: رأيت الأحوص حين وقفه ابن حزم على الحبس في سوق المدينة وإنه ليصيح يقول[١٨٤]:

مَا مِنْ مُصِيبَةِ نَكْبَةٍ أُمْنَى بِهَا ... إِلاَّ تُعَظِّمُنِي وَتَرْفَعُ شَانِي
وَتَزُوْلُ حِيْنَ تَزُوْلُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ ... تُخْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الأَقْرَانِ
إِنِّي إِذَا خَفِيَ اللِّئَامُ رَأَيْتَنِي ... كَالشَّمْسِ لاَ تَخْفَى بِكُلِّ زَمَانِ
إِنِّي عَلَى مَا قَدْ تَرَوْنَ مُحَسَّدٌ ... أُنْمَى عَلَى الْبَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

كما أرسل إلى عمر قصيدة من سبعة عشر بيتًا منها[١٨٥]:

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... هُدِيْتَ ـ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ رَسَائِلِي
أَفِي اللهِ أَنْ تُدْنُوا ابْنَ حَزْمٍ وَتَقْطَعُوا ... قُوَى حُرُمَاتٍ بَيْنَنَا وَوَصَائِلِ
وَمَا طَمِعَ الْحَزْمِيّ فِي الْجَاهِ قَبْلَهَا ... إِلَى أَحَدٍ مِنْ آلِ مَرْوَانَ عَادِلِ
رَجَا الْصُّلْحَ مِنّي آلُ حَزْمِ بْنِ فَرْتَنَا ... عَلَى دِيْنِهِمْ جَهْلاً وَلَسْتُ بِفَاعِلِ
عَلَى حِيْنِ حَلَّ الْقَوْلُ بِي وَ تَنَظَّرتْ ... عُقُوْبَتَهُمْ مِنّي رُؤُوْسُ الْقَبَائِلِ
فَإِنْ يَكُ أَمسى سَائِلاً بِسَمَاتَةٍ ... بِمَا حَلَّ بِي أَوْ شَامِتًا غَيْرَ سَائِلِ
فَقَدْ عَجَمَتْ مِنِّي الْعَوَاجِمُ مَاجِدًا ... صَبُورًا عَلَى عَضَّاتِ تِلْكَ السَّلاَسِلِ
إِذَا نَالَ لَمْ يَفْرَحْ وَلَيْسَ لِنَكْبَةٍ ... إِذَا حَدَثَتْ بِالْخَاضِعِ الْمُتَضَائِلِ

وبقي الأحوص في السجن مدة حتى سمع يزيد بن عبد الملك سَلاَّمة تغني بشعر للأحوص يمدحه فيه، فسأل عنه، وسارع في تحريره والإحسان إليه[١٨٦].

---

[١٨٤] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٤، ص٤٤-٤٥.

[١٨٥] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٨، ص٥٤-٥٥

[١٨٦] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٤، ص٤٩.

www.mtenback.com

ومن الشعراء الذين كان الغزل سببًا في حبسهم بشار بن برد في خلافة المهدي ابن المنصور، لما أفرط في الغزل الفاضح يهوّن به على الفتى والفتاة أمر الفحشاء[١٨٧].

ومهما تكن دوافع بشار إلى ذلك، فإن الفقهاء والزهاد ارتاعوا من غزله وأثاروا عليه الرأي العام، واستجاب المهدي لذلك فمنع غزل العاشقين وضرب بعضهم وأخاف الكثيرين، فامتنعوا[١٨٨].

وكان أبو العتاهية[١٨٩] ممن حبسهم المهدي في الغزل أيضًا، ولكن في شأن خاص؛ إذ كان أبو العتاهية كَلِفًا بجارية لزوج المهدي أو مظهرًا الكلف بها، فتذمرت الجارية إلى ربتها، فحملت الخليفة على تأديبه، ثم شفع له رجال المهدي فأطلقه.

ومن الشعراء الذين عولجوا بالحبس والعقوبة بسبب العشق والغزل، سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان عبدًا حسن الخدمة، غير أنه كان مخشي اللسان، وكان يكثر من ذكر نسائهم في شعره ويصرّح بذلك فتهددوه، وحملوه إلى أمير المدينة، فسُجن وجلد. ولما عادوا به عاود ما كان منه من التشبيب الفاضح، فحبسوه وعاقبوه، فلم يَرْعَوِ فقتلوه[١٩٠].

وكانت منزلة سحيم الاجتماعية سببًا في شقائه لما تجلبه عليه الفوارق الطبقية من المذلة، ولما كانت تفوت عليه من الحظوظ التي يظفر بها الأحرار، ومن هنا كان منشأ حقده، فأخذ سبيل التشبيب الفاضح يزعم فيه تمكّنه من الشريفات، لا يقول ذلك إلا حقدًا على أسياده، وانتصافًا منهم، وكانت أشعاره تستثير كوامن سخطهم مع علمهم بتكذيبه وبراءة نسائهم، غير أن الشعر الفاضح متى تنوشد كان سبة لازمة، صدقًا كان

---

[١٨٧] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ٣/٢٠.

[١٨٨] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٩/١٥٩.

[١٨٩] أبو العتاهية، أبو إسحق إسماعيل بن القاسم، شاعر عباسي.

[١٩٠] الجمحي، أبو عبد الله، محمد بن سلام، طبقات الشعراء.

www.mtenback.com

أو كذبًا، فأخذوه بالعقاب بما لهم من السلطان عليه وحرية التصرف بمصيره، و لم يكن في حبسه استصلاح له بل زيادة ثورة، لما فطر عليه من العناد والتحدي، فكان يرد على من سجنه بالقصائد الفواضح، ويستهين بحبسه وبالجلد مكابرة واستهزاء بأسياده، ولا يكف عنهم لسانه، ورضي أن يموت على أن يبلغ من تغييظهم مبلغًا بعيدًا. من ذلك قوله وقد أكثروا ضربه[١٩١]:

إِنْ تَقْتُلُونِي فَقَدَ أَسْخَنْتُ أَعْيُنَكُمْ ... وَقَدْ أَتَيْتُ حَرَامًا مَا تَظُنُّونَا

وَقَدْ ضَمَمْتُ إِلَى الأَحْشَاءِ جَارِيَةً ... عَذْبٌ مُقَبَّلُهَا مِمَّا تَصُونُونَا

وقوله:

شَدُّوا وِثَاقَ الْعَبْدِ لاَ يُفْلِتْكُمُ ... إِنَّ الْحَيَاةَ مِنْ الْمَمَاتِ قَرِيْبُ

فَلَقَدْ تَحَدَّرَ مِنْ جَبِيْنِ فَتَاتِكُمْ ... عَرَقٌ عَلَى مَتْنِ الْفِرَاشِ وَطِيْبُ

التخلق بالحرية:

الحرية من القيم الاجتماعية التي تتعلق بها النفس وتشعر بالحاجة إليها؛ و كان لابد من الاهتمام بها والعمل على غرسها في نفوس الناس حتى يكون شعورهم بها دائمًا، واهتمامهم بها متصلاً.

والحرية قيمة أساسية جوهرية، يجب أن تستثير اهتمام الفرد والجماعة، وذلك لارتباطها بحاجات اجتماعية حيوية. فالفرد الذي يقدّر الحرية باعتبارها قيمة اجتماعية، يضحي من أجل مجتمعه، ويتحمل أشد المشاق في سبيل حريته.

والمجتمعات والشعوب تناضل وتقدم الشهيد تلو الشهيد في سبيل الدفاع عن سيادة الدولة على أراضيها، وما ذلك إلا مظهر للارتباط بالحرية.

---

[١٩١] ديوان سحيم: ص٥٩.

www.mtenback.com

وأحيانًا تندلع الحروب باسم حماية الحرية، فيهرع الناس للموت والقتل تاركين حياتهم الناعمة ومضحين بها من أجل هذه القيمة.

ولا شك أن للحياة الأسرية أثرها في تشكيل الشخصية الأساسية، لأن مرحلة الطفولة الأولى يتحد فيها الطابع العام لفرع الاتجاهات الوجدانية، وتتكون هذه الاتجاهات في السنوات الأولى التي تسمى، فترة التكوين.

والحرية - كغيرها من القيم الاجتماعية - يكتسبها الفرد عن طريق التنشئة الاجتماعية من سلطة الوالدين والمربين سواء كان ذلك بطرق مقصودة أو غير مقصودة.

ومن أهم المبادئ لغرس قيمة الحرية في الناس مبدأ احترام الآخرين والأخذ في الحسبان حقوقهم ومراعاة شعورهم وتفكيرهم واحترام تصرفاتهم وسلوكهم، ولا شك أن لمراحل النمو الأولى في حياة النشء أثرًا في تكوينه وفي نموه حرًا منطلقًا يعيش في جو الحرية وفيما تستلزمه من شعور وتفكير ونزوع في الأعمال وفي التصرفات وفي السلوك، فيحيا حياة الطفولة بوصفه طفلاً، والصبا بوصفه صبيًا، والشباب بوصفه شابًا فيتعود ممارسة الحياة حسب الطبيعة، فلا يتعذر عليه حين يبلغ الرشد، حرًا منطلقًا، أن يمارس حياة الراشدين بوصفه راشدًا واعيًا مدركًا يعرف كيف يحسن السلوك في تطورات الحياة، وكيف يتصرف مستقلاً في إتقان العمل، فيفكر ويعمل بحرية لا تناقض حريات الآخرين ولا تصطدم معها.

ومن مبادئ غرس قيمة الحرية مبدأ مراعاة الفروق بين الأفراد، فلا يكلف ناشئ بما لا يطيق، قياسًا على غيره ممن يطيقونه.. والعكس صحيح فلا يجوز أن نوقف انطلاق ناشئ يستطيع أن يتجاوز رفاقه. ومن هنا تبرز أخطار المنافسة بين الرفاق في البيت الواحد أو الصف أو المدرسة.

www.mtenback.com

وبما أن الإنسان مخلوق اجتماعي فغاية وجوده هي التكامل المستمر مع غـــيره، وبهذا التكامل تكون سعادته وتجد نفسه الطمأنينة، ومبدأ التكامل له أهميته في تحـــرر الفرد وغرس قيمة الحرية في نفسه. إذ أن الإنسان يحاول دائمًا أن يتجاوز ذاتـــه، وأن يتسامى فردًا ومجتمعًا. والمربي الواعي المدرك، هو الذي يعمل دائمًا علـــى مســـاعدة الناشئ في استمرار تكامله مع المجتمع دون أن يلجأ للضغط والشدة والتحكـــم، لأن في ذلك تحديًا للطبيعة والفطرة ويكون سببًا في استعباد شخصيته، وانطلاق حريته. حريـــة واعية، لا تشوهها الفوضى، ولا يفسدها الطغيان.

والإنسان يعيش حياته شخصًا يتصل وجوده بطبيعته العضوية وميولها، ويعيـــش بشخصية في المجتمع يتحقق وجودها بتكاملها وتفاعلها مع المجتمع. والإنسان في نمـــوه قد يتعرض لتغليب إحدى طبيعتيه، إما لطبيعة الفردية الأنانية أو الاجتماعية التي تحـــدد مسارها مع المجتمع وتعرف دورها مع الآخرين. وتعرف مالها وما عليها من حقـــوق وواجبات. ولا معنى لوجوده بوصفه إنسانًا، إلا بانطلاق حريتـــه، دون أن تتحـــول لفوضى أو تنقلب طغيانًا فيسوء تصرفه ويفسد سلوكه، لأن في سيطرة طبيعته الفرديـــة الفوضى؛ وفي تغلب الطبيعة الاجتماعية طغيان قاهر. لذا لابد من مراعاة مبدأ التـــوازن بين الطبيعتين وبذلك يصل - سليمًا - إلى رشد متزن صحيح.

كما أن النشاط الاستقلالي يكشف عن قدرات ومواهب ومهارات فردية لدى الإنسان يمكن استقلالها لاكتساب الثقة بالنفس والتصرف الصحيح في المواقف الـــتي تواجهه في الحياة.

وغني عن البيان أن لكل نشاط استقلالي علاقة وثيقة بالابتكار والعمل الخلاّق. وأمثلة النشاط الاستقلالي كثيرة.

وللعقائد دور بارز في غرس قيمة الحرية في نفوس الأبناء وتعميقها، فإذا آمـــن الإنسان بحقه في ممارسة الحرية أحبها وتشبع بها ودافع عنها في كل شيء، وأصبحـــت عواطفه وأحاسيسه تحب الحرية وتمارسها في حقها الخاص وفي حقوق الآخرين.

www.mtenback.com

والإنسان بحاجة إلى (الحرية) والانعتاق من ذل الاسترقاق. وأسوأ أنواع الاسترقاق هو استرقاق الغرائز والشهوات، بل إن الرق الخارجي (أو الرق الاجتماعي) لا يحدث في حياة الإنسان إلا إذا سهل طريقه الرق الداخلي - أو الرق النفسي - وفي هذه الحالة يسجن الإنسان نفسه في أضيق سجون الوحدة وتدمر حاجته الأولى - حاجة المحبة - لذلك كان كفاح الإنسان وصراعه الاجتماعي من أجل حريته ابتداء من وجوده على الأرض، واستعداده للتخلي عن الحياة مقابل هذه الحرية. وكذلك كان كفاح قادة الفكر الإنساني وأهل المثل والقيم من أجل حرية النفس والتسامي بالنفس والعقل وإسعاد البشرية بالفكر الصحيح والمعتقد الحر والريادة لكمال الإنسان.

وهذه الحرية - بمظهريها الخارجي والاجتماعي والداخلي النفسي - هي التي تضمن للإنسان استمرار التقدم واتقاء السقوط والتخلف. والشخصية الحرة تقوم على نظام أخلاقي نظيف، تكفل فيه الحرية لكل إنسان، وتصان فيه حرمات كل أحد، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في وطنه.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مصطفى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ... الآية﴾	١١١	١٩
	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا... الآية﴾	١٧٠	١٧
	﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ... الآية﴾	٢١٧	٦٣
	﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ... الآية﴾	٢٢٩	٥٢
	﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... الآية﴾	٢٥٧	٦٣
آل عمران	﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا... الآية﴾	٣٥	١١
النساء	﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ... الآية﴾	٩٢	١١
المائدة	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... الآية﴾	١٠٤	١٧
الأنعام	﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا... الآية﴾	١٤٨	١٩
النحل	﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ... الآية﴾	٢٣	٥٦
	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ... الآية﴾	٢٥	١٩
النمل	﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ... الآية﴾	٣٢	٥٦
الأحزاب	﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ... الآية﴾	٣٥	٤٣
الفتح	﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ... الآية﴾	٢٦	١٥
سبأ	﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ.. الآية﴾	٢٤	١٩
الأحقاف	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي... الآية﴾	٤	١٩

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«أبشروا آل عمار وآل ياسر....»	١٨
«إن خير نساء ركبن الإبل....»	٥٠
«أيما امرأة اختلعت من زوجها...»	٥٢
«تصدقي ولا توعي...»	٥٤
«لا تفعلي هذا يا قيلة....»	٥٥
«لا تنكح الأيم حتى تستأمر...»	٥٠
«لا نكاح له، انكحي من شئت...»	٥٠

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ ء ـــ		
رأيتُ الحرَّ	الوفاءُ	أبو تمام	١	١٠
فإنْ أكُ حالكاً	دواءِ	نصيب بن رباح	٤	٤١
		ـــ ب ـــ		
وجدتُ فيهم	مَحتبي	بشامة بن الغدير	٢	٣٩
قُرنتُ بخنزير	مشذبُ	يزيد بن مفرغ الحميري	٨	٦٦
لله دَرُّ بني عبس	العربُ	عنترة بن شداد	٢	٤٠
شدّوا وثاقَ	قَريبُ	سحيم عبد بني الحسحاس	٢	٨٣
ألا ليتني	شيبها	السميري بن بشر العكلي	٢	٧٣
		ـــ ت ـــ		
وقد علمتُ	شَتِيْتُ	عروة بن الورد	٣	٤٤
		ـــ ج ـــ		
ياجُمْلُ إنكِ	عجاجُ	جحدر بن مالك	٨	٧١
		ـــ د ـــ		
وتبسم عن	ندُ	طرفة بن العبد	١	٩
ولا يقيم	الوتدُ	المتلمس الضبعيّ	١	٣٠
الحر يعطيك	منكودُ	بشار بن برد	١	١١
يقولون جاهر	سأعودها	تليد الضبّيّ	٣	٧١
أنا الرجل	المتوقدِ	طرفة بن العبد	٥	٣١

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
قلْ لقومي	الجودِ	يزيد بن مفرغ الحميري	٦	٦٦
تلوم علي	صرّدا	حاتم الطائي	٣	٥٣
وما قتل الأحرار	اليدا	أبو الطيب المتنبي	١	١١
— ر —				
سوادي بياض	ويفخرُ	عنترة بن شداد	١	٤٠
أماويَ	الذكرُ	حاتم الطائي	١	٤٨
كلّ الرجالِ	أحرارُ	الشريف الرضي	١	١١
يا عبلُ	أسمرِ	عنترة بن شداد	١	٤٥
لا يكن	بحر	طرفة بن العبد	١	٩
لعمرك	بقرّ	امرؤ القيس	١	١٠
أخلاقي	غمْرِ	الخطيم المحرزي	٥	٧٤
تباكرني حميدة	عمرِو	الخنساء	٤	٤٦
فيا صاحبي	يغرِي	المرار الفقعسي	٢	٧٢
لولا الفوارسُ	قار	أبو كلبة التيمي	٦	٣٦
يا نفس لا	مقدارِ	جحدر بن مالك	٣	٦٩
أقول للصحب	أقطارِي	جحدر بن مالك	١	٦٩
لو يتبع العدلُ	دوارا	جحدر بن مالك	١	٦٩
لعمر أبيك	عوارا	السليك بن السلكة	٣	٥٩
— ع —				
أمن ريحانة	هجوعُ	عمرو بن معديكرب	٤	٦٣
ثم سلا	قرعا	ذو الأصبع العدواني	٢	٤٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ ف ـــ		
وإنّ امرأً	لضعيفُ	جحدر بن مالك	٣	٦٨
		ـــ ق ـــ		
عَدَسْ ما	طليقُ	يزيد بن مفرغ الحميري	٧	٦٧
إن كنت عبداً	الخلقِ	سحيم عبد بني الحسحاس	١	١٢
		ـــ ل ـــ		
نظرت وقد	بترجّلِ	القتّال الكلابيّ	٥	٧٧
إن كنتُ في	الأعزلِ	عنترة بن شداد	٣	٤٠
أولاد جفنة	المفضلِ	حسان بن ثابت	١	٥٨
أتيت نساء	جميلِ	سحيم عبد بني الحسحاس	١	٤١
حرّةٌ طفلةُ	بخلالِ	الأعشى	١	١٠
تلك عرسي	لدلالِ	عبيد بن الأبرص	٢	٥٣
وكيف ترى	الحبائلِ	الأحوص الأنصاري	١	٨٠
أيا راكباً	رسائلي	الأحوص الأنصاري	٨	٨١
وأرسل مروانُ	لمضللُ	القتال الكلابي	٥	٧٦
وهل أردن	طفيلُ	بلال بن رباح	١	٢٤
فصار حيّا	الهزالى	ذو الرمة	١	٩
		ـــ م ـــ		
نعاطي	بمحرم	جابر بن حُنَيّ	٢	٣١
ألم تعلمي	الصوارمِ	أوس بن حجر	٢	٤٥
جادت عليها	كالدرهمِ	عنترة بن شداد	١	١٠

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
لعمرك أني	التلّومُ	إبراهيم بن عربي	٧	٦٤
لقد طرقت	سلامُها	السمهري العكلي	٢	٧٣
سنجزي دريدا	قدّما	ريطة بنت حذل	٤	٥٩
ألستَ أبا حفصٍ	أسلما	الأحوص الأنصاري	٦	٨٠
أبينا فلا	المقوما	الشرح الكناني	٢	٣١
ـــ ن ـــ				
وإني والعبسيّ	مختلفانِ	طهمان الدارمي	٣	٧٢
تأوبني فبتّ	حوانِ	طهمان الدارمي	٤	٧٠
ما من مصيبة	شاني	الأحوص الأنصاري	٤	٨١
قوم إذا الشرّ	وحدانا	قريط بن أسيفٍ	٢	٣٣
إن تقتلوني	تظنونا	سحيم عبد بني الحسحاس	٢	٨٣
ألا لا يجهلن	الجاهلينا	عمرو بن كلثوم	٩	٢٩
ـــ ي ـــ				
أشارت	القوافيا	سحيم عبد بني الحسحاس	٤	٤٢
ألا ليت شعري	فأشتفي	خداش بن حابس الميـــمي	٤	٤٩

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثـــل	الصفحة
«أنجز حرّ ما وعد»	١١
«القتل أنفى للقتل»	١٦
«النساء شقائق الأقوام»	٤٣

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن عبد الكريم الجزري:

أسد الغابة في معرفة الصحابة، المطبعة الذهبية، القاهرة، ١٢٨٠هـ.

الأحوص الأنصاري:

شعر الأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق: إبراهيم السامرائي، مطبعة النعمان، بغداد، ١٣٨٨هـ.

الأعشى، ميمون بن قيس:

ديوان الأعشى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

امرؤ القيس:

ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٤م.

الألوسي، محمود شكري:

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المكتبة الأهلية، القاهرة، ١٣٤٣هـ.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل إبراهيم:

صحيح البخاري، شرح الكرماني، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٥٦هـ/١٩٢٧م.

بشار بن برد:

ديوان بشار بن برد، شرح: محمد الطاهر بن عاشور، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

www.mtenback.com

البصري، علي بن أبي الفرج بن الحسن:

الحماسة البصرية، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

البكري، صلاح:

تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٥٤هـ.

البلاذي، أحمد بن يحيى:

أنساب الأشراف، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م.

بيهم، محمد جميل:

المرأة في التاريخ والشرائع، بيروت، ١٣٣٩هـ.

التبريزي، أبو زكريا، يحيى بن علي بن الحسن:

- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٣٥هـ.

- شرح القصائد العشر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، مصر، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:

ديوان أبي تمام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:

- البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

- الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٦٤هـ.

www.mtenback.com

جرجي زيدان:

العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال، القاهرة، مصر، ط٣، ١٩٣٩هـ.

أبو جعفر، محمد بن حبيب:

المحبّر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

جواد عليّ:

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.

جوستاف، لوبون:

حضارة العرب، ترجمة: محمد صادق رستمن المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ.

حسان بن ثابت:

ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، بيروت، د.ت.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن محمد:

- الإصابة في تمييز الصحابة، المطبعة الشرفية، القاهرة، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان، مصر، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

الحلبي، علي برهان الدين:

السيرة الحلبية، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣٢٩هـ.

زكريا، إبراهيم:

مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة. ط٢، ١٩٦٣م.

زكي نجيب محمود:

الجبر الذاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

www.mtenback.com

الزلباني، محمد محمد:

القيم الاجتماعية، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ١٩٧٢م.

سحيم عبد بني الحسحاس:

ديوان سحيم، تحقيق: عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعيد بن منيع:

الطبقات الكبرة، نشره: ادوارد شيخو، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٢١هـ.

ابن سلام الجمحي، أبو عبد الله محمد بن سلام:

طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.

سيد قطب:

في ظلال القرآن، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل:

المخصص، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، ١٣١٦هـ.

الشنقيطي، أحمد بن الأمين:

شرح المعلقات العشر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي بكر:

الملل والنّحل، تحقيق: سيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

صباغ، ليلى:

المرأة في التاريخ العربية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥م.

www.mtenback.com

الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى:

أشعار أولاد الخلفاء، نشرهك هيروث د.ن، مطبعة الصاوي، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد:

- تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- جامع البيان في تفسير القرآن، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٤م.

طرفة بن العبد، بن سفيان البكري:

ديوان طرفة، مع شرح الأعلم الشنتمري، باريس، ١٩٠١هـ.

ابن طيفور، الخراساني، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر:

بلاغات النساء، مطبعة عباس الأول، القاهرة، مصر، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

ابن عبد البر القرطبي، جمال الدين أبو عمر يوسف بن عمر:

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار المعارف الثقافية، حيدرآباد، الهند، ١٣١٨هـ.

ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد:

العقد الفريد، دار الكتاب العربين، بيروت، د.ت.

ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن:

تاريخ دمشق، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٢م.

عروة بن الورد:

ديوان عروة بن الورد، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٩٣م.

www.mtenback.com

عمر بن أبي ربيعة:

ديوان عمر بن أبي ربيعة، المطبعة الميمنية، القاهرة، مصر، ١٣١١هـ.

عنترة بن شداد العبسي:

ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

فرانزن رزونتال:

مفهوم الحرية في الإسلام، معهد الإنماء العربي، طرابلس، ليبيا، ط٢، ١٩٧٨م.

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله بن عمر:

المباحث الشرقية، حيدرآباد، الهند، ١٣٤٣هـ.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب:

القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

قاسم أمين:

الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات، والنشر، بيروت، ١٩٧٢م.

القالي، أبو علي إسماعيل القاسم:

الأمالي، دار الكتب، القاهرة، ١٣٢٤هـ/١٩٢٨م.

القتال الكلابي:

ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

ابن قتيبة الدينوري، أبو عبد الله محمد بن مسلم:

- عيون الأخبار، دار الكتب، القاهرة، مصر، د.ت.
- الشعر والشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

www.mtenback.com

كحالة، عمر رضا:

أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.

ابن كثير القرشي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر:

السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ابن الكلبي، هشام بن محمد:

كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤م.

كعب بن زهير بن أبي سلمى:

ديوان كعب بن زهير، وزارة الثقافة، مصر، ١٩٦٥م.

لبن، علي أحمد:

مرشد المعلمة برياض الأطفال، شركة سفير، الرياض، د.ت.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد:

الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد شاكر، مصر، ١٩٣٧م.

المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين:

ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربية، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

محمد الخضري بك:

مهذب الأغاني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، ط٢، د.ت.

المرزوقي الأصفهاني، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن:

شرح حماسة البحتري، تحقيق: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

www.mtenback.com

المفضل الضبي:

المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٧، د.ت.

المقدسي، أنيس:

الاتجاهات الأدبية في العالم العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٢م.

المنفلوطي، مصطفى لطفي:

النظرات، مكتبة الهلال، القاهرة، ط٤، ١٩٢٣م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:

لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

ابن ميمون، أبو غالب محمد بن المبارك:

منتهى الطلب من أشعار العرب، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، استانبول، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد إبراهيم النيسابوري:

مجمع الأمثال، قدم له وعلق عليه: نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

الميلي، محمد :

ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.

هيلين فيشر:

النشاط التلقائي (التعلّم الخلاّق)، ترجمة: مصطفى فهمي ونجيب اسكندر، دار النهضة، العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

www.mtenback.com

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد:

فتوح الشام، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

ياقوت الحموي، شهابد الدين أبو عبد الله:

معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

يزيد بن مفرغ الحميري:

ديوان يزيد بن مفرغ، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٦٤م.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com